الاسلام
و
مشكلات الشباب

تأليف
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ولي كل توفيق، ويهبني اخلاصا في العمل، وأن يختم حياتي بأفضل ما يرضاه من صالح الأعمال. انه سميع مجيب.

مقدمة الطبعة الثانية

ليس لي ما أقوله بين يدي الطبعة الثانية لهذا الكتاب إلا أن أحمد الله عز وجل على أن يجعل معظم شباب جيلنا الواعي يحس بمشكلاته ويهتم بها ويسعى وراء السبيل إلى حل سليم لها.

قد يكون الكثير من شبابنا يعانون من بعض المشكلات التي تحدثت عنها في هذا الكتاب، وربما كان الكثير منهم مغلوبا على أمره تجاهها، ولكن السواد الأعظم منهم منقاد لها على كره، تائه في دوامتها بدون قصد.فهم ينتظرون المغيث ليتعلقوا به، ويترقبون الموجه ليتجهوا وراءه.

أدركت هذا من الأسابيع الأربعة التي اختفت أربعة آلاف نسخة من هذا الكتاب خلالها، ومن طابع الجماعات والفئات التي أقبلت إليه وحفلت به!

وإذا شعر صاحب المشكلة بأنه يعاني من مشكلة فقد اجتاز نصف الطريق إلى حلها . وما أيسر أن يجتاز النصف الثاني منه عندما يرتسم أمامه المنهج ويتضح لعينيه ضياء الحق.

من الذي بقي إذاً!

بقيت قلة ضئيلة من الشباب، يتمرغون في مشكلاتهم ، دون أن يحسوا أنها مشكلات ، بل إنهم لا يحبون أن يأتي من ينبههم إليها ، أو يوقظهم إلى سوء عاقبتها .. فلنتجاوزهم فيه، فإنما ينتظر أحدهم بلاء الزمن وصقعة الدهر، وإن ذلك لواقع بهم عما قريب.

إنني أقدم الطبعة الثانية من هذا الكتاب إلى كل ذي رغبة في معرفة الحق مهما كان سلوكه ومهما انطوى عليه عقله وتفكيره. لا أسأله إلا أن يغذي هذه الرغبة لديه بمزيد من الدراسة والبحث، ومزيد من التجرد عن إيحاءاته النفسية ونوازعه العصبية.

فإذا استشعر المشكلات التي اتحدث عنها، وآمن بما أذكره من علاجاتها، فكل ما أرجوه منه عندئذ أن لا يدخر وسعاً في بذل المساهمة التي تمكنه لوضع هذه العلاجات موضع التنفيذ، لا فيما يتعلق بشخصه هو بل فيما يتعلق بالمجتمع كله.

إنني لا أملك إلا الكتابة والقول، وها أنا ذا لا أدخر فيهما وسعاً، ولكن غيري قد يملك للعلاج وسائل أخرى، فلنحترق جميعاً غيرة على الحق الذي نؤمن به، ثم لنجمع وسائل العلاج وطرق التنفيذ، ولتتعاون جهودنا جميعاً في هذا السبيل.

فإنها والله لأبسط ضريبة تستحقها الانسانية على الانسان.

دمشق: صفر 1394هـ
محمد سعيد رمضان البوطي

مقدمة الطبعة الأولى

كنت أقدر أن ألقي هذا الموضوع محاضرة على مسامع الشباب، لا أنهيه إليهم _كما أفعل الآن _بواسطة قلم أستعين به أو كتاب أنشره. بل أعالجه أمامهم بشكل مباشر، أو فيما قد يحسون به من أنواع المشكلات الخفية التي لا اطلاع لي عليها.

ولكن قدر الله هو الغالب!.. لم يتيسر لي أن ألتقي بالشباب، ومن ثم فلم يتح لي أن أكلمهم بما عندي وأستمع إلى ما عندهم ..ثم رأيتني أجلس إلى مكتبي لأستعيض عن ذلك كله بالكتابة.. ولأعود فأستنجد بالقلم، تلك الهبة الإلهية العظمى التي تنجدني بالبيان حيث يعي اللسان، وتصل بيني وبين أخوة الدين حيث لا وسيلة لالتقاء الجسوم!.. هبة أسأل الله أن يديمها علي، وأن تظل نافذة مفتوحة تنسكب منها إلى صدري أنفاس الحياة وينطلق منها إلى الآخرين معالم كل حق وخير.

والحديث عن مشكلات الشباب حديث عن محور المشكلات الاجتماعية كلها، ولا تبدأ معالجة الامراض الاجتماعية المختلفة إلا من نقطة أساسية أولى، هي معالجة أوضاع الشباب ومشكلاتهم. ولا يدب النمو السليم في كيان المجتمع إلا حيث يكون شبابه في عافية من كل سوء وانحراف.

فمن أجل ذلك لا يضع عدو همه في إفساد أمة ألا اتجه بالافساد إلى شبابها. ومن أجل ذلك لا تنهض أهم دعامات الحضارة إلا على المقومات الفكرية والنفسية لتربية الشباب.

وما هي الأمة في مجموعها؟.. إنها صغار يتهيئون لمرحلة الشباب، وشباب يأخذون من الحياة لمطامحهم وآمالهم، ويعطونها من نشاطهم وحيويتهم، وشيوخ ينعمون بأصداء شبابهم ويعيشون على بقايا خيره ونشاطه.

فالحياة إذاً ليست إلا سعياً نحو مرحلة الشباب، أو استمتاعاً بخير الشباب ومباهجه، أو ركوناً إلى جميل ذكريات الشباب وبقايا خيرته!..

والشباب في حياة الانسان مجموعة طاقات طامحة. فان كانت موجهة نحو الاستقامة والخير، تهيأ للأمة كلها من هذه الطاقات خير كبير، أما إن تركت لتتجه نحو الانحراف والبغي، تهيأ للأمة كلها من هذه الطاقات شر وبيل.

فلذلك أوضح رسول الله (ص) أن أجر الشباب الناشئ مستقيماً على طاعة الله تعالى يلي أجر الحاكم العادل مباشرة. أما بقية الأصناف السبعة الذين عدهم رسول الله(ص)، فكلهم على فضلهم وعظيم مكانتهم عند الله عزوجل _ يقفون دون مستوى كل منهما!..[1]

وفي الحديث إشارة إلى أن الشباب الناشئ على عبادة الله، له من الاشعاع المؤثر على مجتمعه إصلاحاً وتقويماً، ما يقارب الطاقة التي يملكها الحاكم للاصلاح والتقويم، ذلك بطاقاته الذاتية، وهذا بصلاحياته المكتسبة.

ولا ريب أن العكس أيضاً صحيح، فان الشاب المنحرف في سلوكه، له من التأثير الضار على مجتمعه، ما يقارب التأثير السيء الذي يملكه الحاكم الجائر او المنحرف في حكمه.

ومن هنا. فان الحديث عن مشكلات الشباب، تحليلاً ومعالجة، يسمو إلى أهم الأبحاث الخطيرة التي يجب وضعها تحت مجهر النظر والمعالجة العلمية الصادقة.

***

فمن أين تنبع مشكلات الشباب؟ .. وما هي طبيعة هذه المشكلات وأصنافها؟.. وما هي السبيل إلى معالجتها والقضاء عليها؟

تلك هي ركائز بحثي في هذه الرسالة. واني لأسأل الله العلي القدير أن أوفق في معالجتها، وأن أنتهي مع الاخوة القراء إلى حلول جذرية بصدد هذه المشكلات لا تقف عند حدود كتابة مني وقراءة من الآخرين.

أقول هذا، وأنا أتصور أن حديثي في هذا الموضوع ربما لن يأتي بأي طائل!.. (وأرجو الله أن أكون مخطئاً في هذا التصور).

والسبب أن الذين تؤرقهم مشكلات الشباب ويتذكرون في أسبابها وعلاجها، لا يملكون من أمر هذا العلاج واستعماله شيئاً كل ما يملكونه، البيان لها والتحذير منها والاشارة الى علاجاتها، وما كان لشيء من ذلك أن يستقل يوماً ما بالتقويم والمعالجة

والاصلاح.

وطالما عقدت لهذه المشكلة ندوات، ونشرت فيها كتب وبحوث وظهرت فيها نظريات وآراء، دون أن نجد لشيء من ذلك كله أي ثمرة أو فائدة، في ساحة التنفيذ. بل ظل النشئ يعاني من مشكلاته وظل المجتمع يعاني من معاناته.

وبقيت الندوات والنشرات كلاماً كغيره من الكلام، لا يملك معجزة تحويل ولا خارقة اصلاح ولا تبديل.

ولكني أعود مرة أخرى فأسأل الله تعالى أن أكون مخطأ فيما أتصور، وأن يجعل للكلمات التي سأكتبها روحاً من التأثير والتنفيذ.

وأياً ما كانت النتيجة، فلنعالج هذه المسألة بسائق من الامتثال لقول الله تعالى:(قالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون)

وعلى الله اتكالي إنه ولي كل هدية وتوفيق.

رجب سنة 1393

محمد سعيد بن ملا رمضان البوطي

***

من أين تنبع مشكلات الشباب

ونبدأ قبل كل شيء فنتساءل: هل يعاني الشباب حقاً من مشكلة؟..

والحقيقة أن الشباب(بحد ذاتهم) أينما كانوا ليست لهم مشكلة ما. أي ليسوا متشاكسين مع أنفسهم أو عقولهم، في أي أمر من الأمور. ولا في أي مكان أو زمان، ما داموا من صنف العقلاء الخاضعين لسلطان البشرية وقانونه الطبيعي.

إنهم كانوا، وما يزالون، يتصرفون في شؤونهم الفكرية والنفسية، تصرفاً منسجماً مع مقتضيات الطبيعة البشرية والنوازع الفكرية والعقلية. قد يخطئون أو ينحرفون، ولكن ذلك ليس نابعاً من مشكلة خاصة بهم من حيث إنهم شباب، بل إنهم في ذلك قاسم مشترك واحد، كعوامل العصبية أو الردود النفسية أو الانصياع للتقاليد والعادات.

إذن فمن أين ظهر هذا العنوان الضخم الذي راح يرتسم بأحرف كبيرة جداً بحيث كاد يغطي بقاع العالم كله، حتى أصبح الحديث عن(مشكلات الشباب) معالجة لموضوع عالمي خطير، تشترك في معالجته والحديث عنه جميع وسائل الاعلام، إلى جانب جميع مجلات الدنيا الى جانب طائفة كبيرة من النشرات والكتب والرسائل التي ظهرت في هذا البحث؟!..

لقد كان هذا العنوان تشخيصاً لمرض اتخذ مظهره في صنف الشبان دون غيرهم. فحسب السطحيون أن عنصر الشباب هو ينبوع هذا المرض وسببه، وأن شذوذاً ما قد تسلل إلى التركيب النفسي او العقلي لهؤلاء الشبان!. فانطلقوا يبحثون ويعالجون ويضعون الوصفات العلاجية المختلفة لاشخاصهم. ويلفتون انظار العلماء والمربين الى سوء حالهم وضرورة العمل على تدارك امرهم.

إلا أن من المقطوع به أنهم يبحثون في غير طائل، وأن علاجاتهم لا تقع أي موقع للشفاء، لأن الشباب ليسوا هم المرضى، إنما هم بمثابة انعكاس لحالة مريض آخر!..فمن هو هذا المريض؟

إنه المجتمع الذي يبصر ما يسميه بـ (مشكلات الشباب) ثم ينحصر نظره وفكره في شأنهم وغرائزهم زاعماً أنه يحاول بذلك أن يطببهم ويربيهم . أشبه بمن خاض بسيارته في طريق مستوعر مملوء بتضاريس الحجارة والأخاديد، فلما رآها تضطرب وتتقلقل ولا تتثبت في سير أو اتجاه، نزل منها وراح يحملق في محركاتها ودخائلها، ساعات من الزمن ليكتشف ما فيها من خلل وعطب!

ليست في عقول الشباب ولا في نفوسهم . اينما كانوا . أي مرض أو آفة يعانون منها، ولكنهم بمثابة جهاز حساس يرتسم عليه كل ما قد يكمن في المجتمع الذي هم فيه، من مظاهر الفوضى والتخلخل والاضطراب.

ولو كان الكهول والشيوخ يتمتعون بمثل تلك الحساسية التي عند الشباب لاشتركوا معهم في معاناة المشكلات ذاتها.

ولكي تزداد هذه الحقيقة وضوحاً، ينبغي أن تعلم أن الانسان انما يخوض معترك الحياة بسلاح من الطاقة العقلية والنفسية. بيد أن كلا منهما لا يزيد في طوره الأول، (عندما يكون مجرد هبة الهية تنزلت اليه من الغيب) على ان يكون مثل النواة الصغيرة من الشجرة مثمرة متفرعة الأغصان، بما يكسبه صاحبها على المدى الطويل، من التجارب والخبرات وبما يربو بين جوانحه من العواطف والوجدانات المختلفة.

وبعض هذه التجارب والخبرات يكون موجهاً ومقصوداً وهو ما يطلق عليه علماء التربية: العوامل التربوية المقصودة كالمدرسة ونحوها، والبعض الآخر . وهو الأكثر والأهم . يكون عفوياً لا يندفع اليه بأي قوة موجهة، وهو ما يسميه علماء التربية بالعوامل غير المقصودة، كالبيئة والوراثة ونحوهما.

وهكذا فان شخصية الشباب الفكرية والنفسية انما يتكامل معظم نسيجها عن طريق المجتمع بوساطة عوامل تؤثر فيه بشكل مباشر أو غير مباشر.

فلا جرم ان الشباب يكون بذلك أدق لوحة تنعكس عليها حالة المجتمع الذي هو فيه ان خيراً فخير أو شراً فشر.

ولا جرم أن ما نراه من مظهر الخير أو الشر على هذه اللوحة، انما هو صورة للحالة السليمة أو الفاسدة التي يتسم بها المجتمع لا أكثر.

ستقول: ولكن ما الفرق؟ ولماذا لا تكون الحالة التي ينطبع عليها المجتمع صورة للحالة السليمة أو الفاسدة التي يتلبس بها شباب الأمة بدلاً من العكس؟

ويمكنك أن تتبين الجواب من خلال السطور السابقة.فلقد تبين لك مما ذكرنا أن الشاب هو الذي يتلقى تربيته المباشرة أو غير المباشرة من المجتمع، وليس المجتمع هو الذي يتلقى تكوينه من الشاب الواحد.

وما هو المجتمع؟ انه البيت، والمدرسة، والشارع، والمسجد، والملهى، والحانوت، والمعمل، والدائرة، بما قد يكتنف ذلك كله، من المعاني والقيم والأفكار.

ولا شك أن القوة الموجهة في هذه المرافق كلها، انما تجمعت فيها بتأثير أفراد وقوانين وأفكار علماء وموجهين. ولكنها بعد أن امتلأت بهذه الشحنة، انتقلت من دور التأثر الى دور التأثير، فأصبح لها سلطانها التربوي والتوجيهي على الأفراد لا سيما الشباب.

غير أن سلسلة هذا التفاعل في التأثر والتأثير تظل مستمرة.

فالأفراد والعلماء الذين يؤثرون في المجتمع، انما يؤدون أمانة استودعها عندهم المجتمع السابق بما كان له عليهم من سلطان وتأثير.

وهكذا، فان مجتمع كل عصر من العصور متأثر بسابقيه مؤثر في لاحقيه.

لعلك تسأل بعد هذا الذي ذكرناه: أفليس هؤلاء الباحثون الذين يؤرقون فكرهم في معالجة ما يسمونه بـ (مشكلة الشباب) على علم بهذه الحقيقة التي ما ينبغي أن تخفى على أحد؟ فلماذا يحبسون فكرهم في اللوحة

التي انعكست عليها آثار المشكلة، ولا يلتفتون الى المجتمع الذي هو ينبوع المشكلة وأساسها؟(1).

والجواب أنهم أو أكثرهم، على علم بهذه الحقيقة، ولكنهم مع ذلك لا يلتفتون إلى المجتمع الذي هو مكمن الداء ومنبع المشكلة، لا نهم لا يرغبون له أن يكون على غير هذه الحالة، إذ هي تلذ لهمم على سوئها وتتفق مع رغباتهم على خطورتها.فهم والمجتمع كالمدمن مع الخمر، يرى أضرارها ويلمس آثارها السيئة في جسده، ولكنه مع ذلك يظل عاكفاً عليها، ويذهب يعالج جسمه من أضرارها بما لا يغنيه من الأدوية والعلاجات المسكنة.

أجل إن الداء في المجتمع وإن الباحثين ليعلمون ذلك. ولكنهم لا يصبرون عن دائه اللذيذ، كالمدمن لا يصبر عن كأسه المعتقة، غير انهم يجدون أنفسهم وجهاً لوجه مع آثار مؤذية ومتعبة لهذا الداء، تتمثل فيما يسمونه: مشكلات الشباب، فيضطرهم التبرم بها الى لون غير مجد من المقاومة لها، كمن قد تلوث ثيابه وجسمه بحلواء جمعت الذباب اليه من كل جانب فهو يطيرها بيده هكذا كلما تبرم بها وأزعجه أمرها.

وهذا الانسان يظل نزاعاً إلى أن يغنم من دون مغرم وإلى أن يكسب من دون أي خسران فهو يركن إلى الحالة الاجتماعية التي هو فيها، وإن كانت سيئة، لأنها تدغدغ أحلامه وتستجيب لشهواته وأهواءه، ولكنه مع ذلك يتبرم بنتائجها وآثارها، فيسعى سعيه العابث في أن يعاند الحكمة الالهية ويقطع هذه النتائج عن أسبابها، عله يستمتع بالأسباب اللذيذة، ويتخلص من النتائج المتعبة! وانها لاعظم مشكلة للانسان في هذه الحياة.

***

والآن، ينبغي أن نستعرض أصناف هذه المشكلات ومدى أهميتها، آخذين بعين الاعتبار مجتمعنا الاسلامي الصغير.
إذ لا شأن لنا بتلك المجتمعات النائية الأخرى التي لا سلطان لنا عليها.
ولسوف نجد في نهاية بحثنا ان الحديث عندنا عن مشكلات الشباب، يعود في قسم كبير من دوافعه الى تقليد الغرب في كل ما يأتي ويذر!
وإلا فإن مشكلات الشباب عندنا لا تبلغ أن تكون جزءاً من هذه المشكلات التي يقوم ويقعد بها الناس في الغرب.
ولكن مهما يكن فاننا سائرون في الطريق، ومجتمعنا يشد شداً بحبال من التقيد الأصم الأبكم، إلى المجتمعات الغربية، ويقدر ما أحرزناه إليهم من القرب، أحرزنا ما يتبرمون به من مشكلات.
فلنعالجها بالوصف والكلام، عسى الله أن يقيض لها من يعالجها بالعمل والتطبيق. ولنتحدث الآن عن أصناف هذه المشكلات.

***

مشكلات الثقافة والعلم

ليس شيء أحب الى الشباب المثقف اليوم من أن يعلم !..أي أن يطلع على أي مجهول، وهو يحب أن يسخر لذلك كل ما يقع تحت يده من وسائل العلم والاعلام،بدءاً من الكتاب العلمي، إلى المحاضرات والندوات، إلى جهاز التلفزيون والاذاعة، الى نافذة السينما والشارع!.
ولو أن المجتمع استغل رغبة الشباب هذه فجند كل ما يدخل تحت سلطانه من وسائل العلم والاعلام، لخدمة الحقيقة والكشف عن خفاياها والوصول إلى علم سليم بها لظهر من هؤلاء الشباب جمهرة كبرى من العلماء المتبصرين المطلعين على طائفة كبرى من حقائق هذا الوجود.
ولكن المجتمع لم يستغل هذه الرغبة.. فلم يستفد اكثر هؤلاء الشباب من مغامراتهم العلمية والثقافية شيئاً.
يعكف الشباب من هؤلاء على دراسة كل شيء ثم يعود أخيراً . كما يعترف هو . بلا شيء.
ويستهوي أحدهم دراسة الفلسفة ونظرياتها، أملاً في أن ينفذ من طريقها الى معرفة الحقيقة وأسرار الكون، فيعود من رحلته بجهل أعظم وشكوك أخطر وحيرة أشد.
ويحاول آخر أن يتزود من ثقافة[2]امته بنصيب آملاً أن يجد عندها حلول المعضلات الاجتماعية، ولكنه يعود من الثقافة التي تزود بها ، بمزيد من المشكلات والمعضلات الاجتماعية المحيرة!.
تلك هي صورة المشكلة.
ولكن ما هي جذورها وعواملها الأساسية؟
والجواب ان كلمة (العلم) في مدلوله المنطقي المعروف: ادراك الشيء مطابقاً لما هو عليه في الواقع. ولا يسمى هذا الادراك علماً الا اذا تكاملت الادلة على أنه ادراك موافق للحقيقة والواقع ولافرق بعدئذ بين أن تكون المسألة من الطبيعيات الخاضعة للتجربة والحس، أو المجردات الخاضعة للنظر والفكر.
ومن أوضح النتائج المترتبة على ذلك، أن كلمة (لعلم) لا تطلق على إدراكين متخالفين لحقيقة واحدة، إذ لابد أن يكون أحدهما مخالفاً للواقع، فلا يكون عند ذلك علماً.

غير أن هذه الكلمة، تنسحب . في مدلولها الشائع اليوم . على طائفة لا حصر لها من النظريات والآراء والتصورات المتعلقة بأمور شتى، مهما تناقضت واختلفت عن بعضها!.

إن أي معالجة فكرية لحقيقة ما، جديرة بأن تضفي على النتيجة التي تنتهي إليها، اسم (العلم)بكل ما لهذه الكلمة من قداسه وحصانة وتقدير، بشرط واحد، وهو أن تتسم هذه المعالجة بما يسمونه:(البحث العلمي).

وإنما يكون البحث علمياً، بمجرد أن يتبع صاحبه منهجاً معيناً يستعلي فيه على المعتقدات الدينية وغيبياتها. وبناء على هذا الشرط وحده يمكن للبحث العلمي أن ينتهي إلى أحكام علمية قاطعة وان يغدوا أصحاب هذه البحوث، بحق، علماء، يأخذوا بعلمهم كل من يؤثر أن يكون علمياً في تفكيره ويقينه!.

والنتيجة التي لا ريب فيها هي أن تنتهي هذه(البحوث العلمية) إلى نتائج من الأحكام العلمية المتناقضة، على الرغم من تعلقها بحقيقة واحدة، وأن يسمى أصحابها مع ذلك علماء فيها على الرغم من تخالفهم، إلى عدة آراء في المسألة العلمية الواحدة.

ولنضرب مثالاً على ذلك.

يتجه الشباب المثقف نحو الاسلام ليستمع إلى عقيدته وأحكامه، عن الكون والانسان والحياة، فيتسلل اليه وحي من المجتمع يقول: انت رجل علم، وإنما الدين اعتقادات غيبية لاسند لها، ولكن تعال فأصغ إلى ما يقوله العلم على لسان اقطابه، تعال فأنصت إلى كانت وديكارت، وفرود، وكارل ماركس، وداروين، وستوارت ميل..الخ.

إذاً فالعلم الحقيقي عن الكون والإنسان والحياة انما هو عند هؤلاء، لأنهم يتبعون المنهج العلمي ولا ياسرون أنفسهم للعقائد الغيبية.

وينصت الشاب إلى هؤلاء، ويمعن فيما يقوله كل منهم وإذا النتيجة العلمية لهؤلاء العلماء نتائج متناقضة متشاكسة:

فكانت وديكارت لا يؤمنان بما يؤمن به داروين من النشوء والإرتقاء، وداروين لا يذهب الى ما يذهب اليه فرود فيما يتعلق بالجنس وسلطانه على النفس، والذين يرون، من هؤلاء الباحثين، ان نظام الكون قائم بقانون الميكانيك، لا يؤمنون بما يراه ماركس واشياعه من أنه قائم على نظام الديالكتيك.

وهكذا، فان لكل من هؤلاء الباحثين مذهباً انتهى إليه في تفسيره للوجود والحياة، يختلف في كثير من جوانبه عما ذهب إليه الآخرون اختلاف النقيضين.

فالشاب المثقف الذي يدعوه مجتمعه الى دراسة هؤلاء الأشخاص، على أنهم علماء، وعلى أن أحكامهم على الكون وأسراره هي العلم . أي حكم من هؤلاء الأحكام المتخالفة يعتمد، وبأيها يأخذ ويصدق؟!.أي أن قيمتها العلمية تكمن في تجردها عن سلطان الدين، لا في مدى قربها أو ملامستها للحقيقة بحد ذاتها؟!

هنا تبدأ المشكلة.. وعند هذا الشعور النفسي أو التساؤل العقلي . مهما كان دقيقاً وخفياً . تظهر أول عقدة علمية أو فكرية في نفس الشاب. انه قد يختار مذهباً من هذه المذاهب (العلمية) المتخالفة، لدافع ما اجتماعياً كان أو نفسياً أو تربوياً أو منفعياً. ولكن هذا المذهب الذي اعتنقه وأخذ به، لا يورثه ما يورثه ادراك الحقيقة العلمية على وجهها الصحيح، من الطمأنينة والسكينة النفسية أو الرضا الفكري.

ذلك لأنه، وقد استمسك بأي من هذه الاراء، انما فعل ذلك تجملاً بحلية الفكر التقدمي أمام أقرانه ومجتمعه أو آملاً في خير ينتظره، أو توقياً من شر يطوف به، أما في أعماق نفسه ولدى الخلو التامة وجهاً لوجه مع عقله، فهو يتأرجح بين نظريات وفروض لا أول لها ولا آخر: فهو لا يكاد يصغي الى الفلسفة الوجودية قليلاً، حتى يصحو الى الرد عليها من الفكر الماركسي، وما هو الا أن يمعن النظر قليلاً في هذا المذهب الثاني، حتى يجد الرد قد تقاذف عليه من كل حدب وصوب. ويفر من زحمة هذا الجدال والضجيج إلى أحدث رأي تقدمي عن الكون تتبناه طائفة كبرى ممن يطلب له أن يستظلوا بظلال البحوث العلمية، وهو الرأي الذي نادى به داروين فيما يتعلق بالحياة وأصل الأنواع، ولكنه ما يكاد يستريح إلى هذا الرأي ويلقي العصا عنده، حتى يبصر(الداروينية الحديثة)[3] تكر في هجوم يأخذ عينه ويلفت نظره حتى يبصر داروينية اخرى

من خلف هذه الثانية، تجد جدها في السعي لتحطيمها، وهي تحمل على كاهلها راية فكر جديد!.
في خضم لأحكام(العلمية) الهائجة المتطاحنة، ينتاب نفسية الشباب وفكره دوامة من الجهل المتعب والحيرة المؤرقة، ويخرج من خلوته الفكرية هذه بنفس تنكر كل شيء، وتتساءل عن كل شيء.
غير أن هذا الشعور لا يتجاوز مع ذلك أعماق نفسه. فلاجرم انه يبرز من خلواته الفكرية هذه إلى الناس رابط الجأش مستمراً في اتجاهه مواصلاً الدفاع عن مذهبه الذي عرف به، للأسباب التي ذكرناها آنفاً.
ولما كان ظهوره بثباته الفكري ودفاعه عما يتمظهر أنه يوقن به، مجرد ستار يغطي الحيرة والقلق اللذين يشعان في طوايا نفسه، فان الحيرة والقلق يظلان في ازدياد وتصاعد، وما ينفك الرجل يجتر سبحانه الفكرية وشكوكه العقلية في كل شيء، كلما خلا إلى نفسه وراجع إلى أمر ذاته.
وهذه المشكلة . على خطورتها . لا يحس بها في هذه المرحلة، غير صاحبها، إذ هي تعيش كما قلنا في ضميره البعيد ومشاعره الدقيقة.
ولكنها. لا تلبث فيما بعد، أن تنعكس إلى سلوكه وعلاقاته مع الآخرين. إذ يغدو مستهيناً بكل شيء لا يضع لحياته هدفاً ولا يسمو بها إلى أي مبدأ. وفي مجتمعنا اليوم كثير من هؤلاء الشبان، ولا ريب أنهم في ازدياد.

***

وربما بحث الواحد من هؤلاء عن منقذ له من هذه الشكوك والتناقضات، فراح يلتجئ إلى الفلسفة. يظن، من ضخامة هذا الاسم، أن عند أربابه الخبر اليقين عن كل شيء.
وقد قالوا قديماً، إذا درست نصف الفلسفة، رجعت إلى نفسك بجهل أشد وحيرة أخطر، أما إذا درستها كلها ونفذت إلى أعماقها، أورثتك علماً غزيراً وفهماً صائباً لحقائق كثير من الأشياء.
وأكثر الفلاسفة المعاصرين الذين أمضوا حياتهم في دراسة هذا الفن، إنما وقفوا منه في ربع الطريق. فأورثتهم تلك الدراسة نظرة مزورة إلى الأشياء، وغرست بين جوانحهم وسواساً في كل شيء. وقد ألف هؤلاء الفلاسفة كتباً وأبحاثاً، ولكنهم أودعوها وساوسهم الفكرية أكثر من أن يضمنوها حقائق علمية. هذا بالنسبة لأساطينهم المعروفين ذوي الأسماء الهائلة، والشهرات الذائعة، فكيف بمن نسج على منوالهم تقليداً، وكتب على نهجهم تجملاً وتمشدقاً؟
فالكثير من شبابنا اليوم، مفتونون بدراسة هؤلاء الأشخاص، وقراءة كتبهم والاهتمام ببحوثهم. وانما الدافع لهم الى ذلك ما قد قلته لك: البحث بين هذه الاسماء الضخمة عن منقذ لهم من شكوك(العلماء)وتناقضاتهم حول حقيقة الانسان والكون والحياة. ولكن هذه الدراسة تقذف بهم الى جهالات أشد وظلمات اطم، وربما عادوا وهم يشكون في قيمة العقل ذاته، كما لمست ذلك عند طائفة من الناس.
فقد زارني منذ حين ثلة من هؤلاء الشباب، ذوي الشعور المسبلة والازياء العجيبة، وأخذوا يطرحون ما عندهم من تساؤلات عن الحياة والانسان وأصله ومصيره، فسالتهم عن الكتب التي درسوها والمذهب التي انتهوا إليها. فسردوا لي أسماء طائفة من الكتب الفلسفية المترجمة، واخبروني انهم لم يستفيدوا منها شيئاً، بل عادوا الى الحيرة التي انطلقوا منها!
قلت لهم: ان فاقد الشيء لا يعطيه، وهؤلاء الذين قرأتم لهم ودرستم أفكارهم هم أنفسهم أحوج الناس الى من ينقذهم من حيرتهم.
ان كل ما عندهم أنهم يستعرضون المذاهب الفلسفية قديمة أو حديثة، ثم يتبعون كلاً منها بالنقد الذي يرون. ومن العبث أن تنتظر منهم الحكم المبرم في الأمر. اذ ان موقفهم ليس أكثر من موقف المستعرض والمقارن، ثم المتشكك في جملة الأمر كله.
وقلت لهم أخيراً: ان للبحث العلمي في عصرنا مشكلة كبرى، وان أول مفتاح لحلها هو أن نتعلم كيف نقرأ ومن أين نبدأ القراءة[4].

***

ثم أن الثقافة تساهم هي الاخرى بدورها، في تفاقم المشكلة وازديادها.

ولنعلم قبل كل شيء الفرق بين العلم والثقافة.

ان العلم هو كما قلنا: ادراك الشيء ادراكاً مطابقاً لما هو عليه في الواقع ونفس الأمر بدليل، يقطع النظر عن أي زمان أو مكان. أما الثقافة فهي تلك المعارف والخبرات التي تتعلق بطبيعة أمة، وتراثها، وتقاليدها، ومجتمعها، ومواضعاتها السلوكية والتربوية.

وعلى ذلك، فان (العلم) هو السلعة القابلة للتصدير والاستيراد في نطاق العالم كله، لا ينبغي أن تتعثر في طريقها بدين أو مبدأ أو مصلحة أو تقليد. أما الثقافة فرغم انها قد تنهض في كثير من جوانبها على حقائق العلم، ولكنها في مجموعها تعتبر من خصائص شعب أو أمة ما تنسج على قدرها، وتنطبق على حياتها.

فالشاب المثقف إذاً هو من قد تفتح فكره على طبيعة البيئة التي هو فيها، بكل ما تنهض عليه من تاريخ وأعراف وقيم ومواصفات التربية والسلوك.

ولكن مجتمعنا اليوم لا يكاد يتمتع بثقافة، إنه أشبه ما يكون بكيس قد أفرغ من محتوياته الأصلية. ثم حشي . كل مخلاة . بأجزاء متناثر من ثقافات الأمم الأخرى.

وعندما يقبل الشاب بفكره على المجتمع ليتزود من ثقافته بزاد، يقع من جراء ما قلناه، في تناقضات تتعلق بشؤون الحياة، واضطراب في وجوه التربية والسلوك وتنافر في أنظمة المجتمع.

وعلى سبيل المثال نقول: ان الفكرة التي تنهض عليها حياة المرأة (التقدمية) عندنا، فيما يتعلق بمظهرها وعملها واختلاطها مع الرجال، لا تتفق مع واقعنا الاقتصادي ولا تتفق مع الفكرة الأخرى التي ينهض عليها نظم الأسرة عندنا، من اعتبار الزوج هو المسؤول عن المهر والنفقة، وهو المشرف على البيت وشؤونه.

والأصول التربوية التي يؤخذ بها الطفل في مدارسنا أو تهيمن على الكثير من بيوتاتنا، لا تتفق مع طبيعة القيم والمبادئ التي نأخذ أنفسنا وأطفالنا بها.إذ إن هذه الاصول التربوية مستوردة من مجتمعات لا ينهض الدين عندهم إلا على تربية العاطفة والوجدان، في حين أن الدين عندنا ما ينبغي أن ينهض في جوهره إلا على العقل وقناعة الفكر، وليس للعاطفة في ذلك إلا دور الرديف.

ان هذا التنافر بين جوانب الثقافة التي تشيع في مجتمعنا، تعكس أخيراً نوعاً خطيراً من التشاكي في نفسية الشباب الذين وضعوا لبان الثقافة الممزوجة المتنافرة.

ان احدهم لينظر الى تاريخه الأوعر، في فترة العصور الوسطى، بنفس تلك العين الحمراء المزدرية التي ينظر بها الغربيون الى هذه المرحلة من تاريخهم.

وان أحدهم يأبى الا ان يخضع إسلامه الذي لم يعرف يوماً ما أي عداء أو اختلاف مع شيء من حقائق العلم، لنفس البوتقة (الاصلاحية) التي ادخلت اليها المسيحية لتغدو متفقة مع سير الفكر والعلم.

واللغة العربية . وقد كانت تملك كنزاً من الثقافة المتنوعة . ففقدت اليوم معظم كنزها هذا، واستحالت، بعد أن أفرغت من مضمونها الأدبي العظيم، الى وعاء يفيض بالمذاهب والاتجاهات الادبية الاجنبية التي ليست من هذه اللغة وطبيعتها في شيء وانصرفت اذهان الشباب الى تلك المذاهب والابتداعات الاجنبية، لينصرفوا أخيراً عن دراسة لغتهم وطبيعتها وما تنهض عليه من قيم وقواعد ودراسات.

فهذه القطع المتنافرة من الثقافة التي تجمعت اجزاؤها من هنا وهناك، لا تعود في اضرارها الوبيلة الى المجتمع فقط من حيث هو هيئة تركيبية لحياة الناس، بل تعود قبل ذلك بالتعقيد الى نفوس الشبان الذين هو أول من يصابون بدائها ويعانون من تناقضاتها.

ومن أهم آثار هذا التعقيد أنه يقضي على امكانات صفاء الرؤية الى حقائق الاسلام واصوله ويقيم بينه وبينها حواجز من الجهالات الكثيفة التي لا وجود في الأصل لها.

***

مشكلة الصراع النفسي

واعيد ما قد قلته لك، من أن هذه المشكلات، ليست مرضاً كاملاً في كيان الشباب ونفوسهم، وانما هي مرض يعاني منه المجتمع، وليست مشكلة الشباب الا عرضاً من أعراض مرضه هو.

ولذلك، فان ما نسميه بالصراع النفسي عند الشباب، ليس ظاهرة شذوذ وجدت فجأة في احساساتهم. وانما هو انعكاس لاسوا ظاهرة اصطبغ بها المجتمع بشتى مرافقه وجوانبه. وكان لابد لهذا الانعكاس أن يرتسم بجلاء وخطورة على نفسية الشباب التي هي ادق جهاز حساس من نوعه.

فمن أي الأمراض الاجتماعية ينشأ الصراع النفسي لدى الشاب؟

انها في الحقيقة امراض كثيرة متنوعة، ولكن من الممكن ان نحزمها جميعاً تحت عنوان واحد.ألا وهو: داء الازدواج والتناقض.

واذاً، فالأمر الكلي الخطير الذي تعاني منه الناشئة في مجتمعاتنا انما هو الازدواج!.. الازدواج في القدوة والازدواج في التعليم، والازدواج في التربية، والازدواج في طرح الافكار والقيم، وبالجملة فهو الازدواج في جميع الحقول التي تساهم في تكوين شخصية الشاب ونسيجه الفكري.

ففي المدرسة . وهي أهم العوامل التربوية . يتلقى التلميذ أمشاجاً من القيم والآراء المتناقضة المتنافرة يتسابق اليه بها مربون ومعلمون متناقضون في الفكر والمنهج والسلوك. فهو يتلقى من مدرس الفلسفة والاخلاق نقيض ما قد تلقاه من مدرس الدين، ثم يتلقى من مدرس العلوم خلاف ما كان قد تعلمه من كليهما.

وتغدو عملية التربية والتعليم والتثقيف، في حياة التلميذ، عبارة عن صراع بين البناء الهدم والمحاولات المتدافعة، وتتجمع حصيلتها في كل من ذهنه ونفسه، غباراً وغشاوات داكنة، تحجز العقل عن الفكر وتبعد الصفاء عن النفس.

في الشارع والمكتبة والنادي وأمام التلفزيون، تطوف به مظاهر اخرى من هذا التناقض العجيب.

فهو يسمع في هذه المرافق كلها عن الأخلاق والفضيلة وضرورة التقيد بهما وخطورة الخروج على قانونهما. ويسمع أيضاً عن الحرية والحياة العصرية وضرورة التجمل بهما، عن خطورة الكبت والقيد والقوقعة في حمأة التقاليد.

وهو يسمع في هذه المرافق كلها عن الدين وحقائقه وقيمه وضرورة قيام المجتمع على دعائمه والاستعانة بمنهاجه وعلاجه لحل كل مشكلة. ولكنه يسمع أيضاً عن الرجعية وأوضارها والنهضة العلمية، وكيف أنها نسخت العقائد الدينية، وعن ضرورة تحرير الفكر من أسر الايمان بالغيبيات والاستعانة بالفكر المادي لحل كل مشكلة وتحرير كل أرض!

انه يلمس هدا التناقض الخطير في الشارع الذي يسير فيه، ويقرؤه في الكتب والمجلات التي يطلع عليها، ويسمعه في المحاضرة والندوات التي يغشاها، ثم هو يعانيه بين زملائه وأصدقائه الذين ينعكس عليهم ذلك كله، جدالاً ومشادة وهياجاً.

وفي البيت تتجمع آثار ذلك من حوله، في مظاهر اشد خطورة وبأساً. اذ قلما تخلو اسرة من أعضاء متناقضين؛ فيتحول وئام البيت وسعادته الى شقاق وشقاء وتسوء علاقة الوالد مع أولاده، وتتأزم صلة الزوجة بزوجها ويتعالى الشجار بين الجميع عند كل صباح ومساء.

***

ثم أن هذه التناقض يتجسد في جوانب اخرى من المجتمع، حيث يبدو في مظهر هادئ من النفاق الأملس. فيفوق في أضراره وبلائه على الناشئة، تلك المظاهر المتناقضة الاخرى، إذ تكون هي وحدها في الغالب، محط الخديعة وكبش الفداء.

يسمع الشاب، في نفس صافية وقلب صدوق، حديث التضحية والوطنية والفداء، ضمن قالب رائع من الألفاظ والشعارات، فيصدق ويتحمس ويتفاعل.. ثم يكتشف على حين غرة أن الشأن أهون من ذلك بكثير، وأن الأمر لم يكن أكثر من بضاعة كلام.

ويصغي السامع إلى كثير من الوعاظ والخطباء الموجهين، فيتأثر لما يسمع، وتطمح به نفسه إلى القيم العالية والأخلاق الفاضلة. وفيما هو يسير بصدق وحماس إلى هذه الغاية، يفاجأ باكتاف أغراض ومصالح اخرى من وراء كثير من تلك التوجيهات والعظات البليغة، ويكشف من حال اربابها ما ينقضها كل التناقض[5].

هذا هو المجتمع الذي ينشأ الشاب في ظله!

وهذه هي الأجواء التربوية التي ينهل الشاب بتربيته ويستوحي نهج سلوكه منها!.

فأي مصير تنتظره من الشاب أفضل من هذا المصير الذي يشكو الناس منه؟

ومن هو الشاب؟ انه كتلة غضة يانعة من الفكر والنفس والعواطف.. وكل من هذه العناصر الثلاثة محتاج أشد الحاجة إلى الغذاء الصالح الذي يتوقف عليه نموه وتكامله.

ولقد كان الغذاء . لسوء الحظ . هذا الذي وصفته لك، فماذا عسى أن تكون النتيجة؟..

إن النتيجة الأولى أن يقع الشاب في عراك، بل في صراع نفسي.

أما نتيجة هذه النتيجة، فهي انعدام ثقة الشاب بالمجتمع وانعدام صلة الاستفادة مما بينهما. فلا الشاب يصلح أن يتتلمذ عليه ولا المجتمع يصلح أن يكون مربياً له، وإنما يغدو الشاب أستاذاً لنفسه، منفرداً بارشاد ذاته!..

ثم تكر النتائج الى أخرى بعد ذلك.. ولا ريب انها تتمثل في الانحراف الفكري، والتعقد النفسي، والانطلاق الغريزي.

واعلم ، انه بمقدار ما يكون واقع التناقض والازدواج اللذين وصفناهما ضارياً وشديداً في المجتمع، يكون انعكاس ذلك على الشاب ضارياً وشديداً أيضاً.

وانظر، تجد مصداق ذلك متمثلاً في تفاوت ما يسمونه اليوم بمشكلة الشباب إذا ما قارنت بين مجتمعات العالم المختلفة، وذلك تبعاً لمدى تفاقم هذا المرض فيها.

أما الآن فلندرس النتائج الخطيرة التي تنعكس اخيراً في حياة الشاب إثر ما قد ينتابه من صراع نفسي يطول أو يقصر أمده.

انها أولاً تتمثل في الانحراف الفكري. لان المقدمات المنطقية المتناقضة تنتج شيئاً واحداً هو: انكار طبيعة المنطق بحد ذاته.

وليس لك ان تنتظر من الشاب غير هذا، مادام سائراً في المرحلة التي يتوكأ فيها عقله . بشكل طبيعي . على افكار الآخرين وتعليماتهم .. وقد توكأ عليها فأورثه اضطرابهم فيها عرجاً دائماً في الفكر.

وأي قيمة تبقى للعقل عنده، وقد علمت أن مقياس هذه القيمة عنده واقع المجتمع الذي يعيش فيه؟ وقد نظر فرأى العقل ممزقاً فيه بين تناقضات عجيبة يلمحها في جميع جوانبه.

إن من الطبيعي أن تجد أكثر هؤلاء الشباب لا يؤمنون بشيء، لأن اللاشيء هو النتيجة المنطقية للصراع المستمر بين شيئين!..

ثم إنها تتمثل في التعقد النفسي: لأن النفس الانسانية إنما تسير في فجاج الحياة بدافع من مجموع عواطفها المدافعة والرادعة والممجدة..

وهذه العواطف إنما يتألف نسيجها في النفس عن طريق المجتمع وما فيه من دوافع الامل والرجاء والحب، وروادع الخوف والعقاب والإشفاق، وأسباب النعيم والرفاهية والخيرات.

وبقدر ما يتألف في النفس مزاج معتدل من مجموع هذه الأنواع الثلاثة من العواطف الانسانية، يتوفر فيها الصفاء والشعور بالسعادة والاستقرار.

فكيف للنفس أن تسترضع من المجتمع الذي هذا شأنه عواطفها الانسانية في تناسق واعتدال؟!

إن المجتمع الذي تتشابك فيه متصارعةً القيم والمذهب والآراء ثم يتخذ من الناشئة حقلاً لتجاربه وحلبة لصراعاته . سواء تمثل ذلك في المدرسة أو البيت أو الشارع أو المكتبة . هذا المجتمع لا يستطيع أن يغذي نفس الشاب بأي معنى مما يسمى بالحب أو الأمل أو الرجاء، ومن ثم فهو لا يستطيع ايضاً أن يقرنه بأي مزيج معتدل من الخوف أو الإشفاق أو روح العقاب.

والنتيجة هي أن تنمو بين جوانح هذا الشاب نفس متمردة على كل شيء، لا تدين بولاء، ولا تنقاد لحب، ولا ترتدع بخشية.

نفس مضطربة لا تؤمن إلا بذاتها، ولا تغذي سوى أنانيتها، لأنها لم تجد من سلطان العقل ما يفرض عليها أي سلوك آخر، ولم تجد من عطاء المجتمع ما يربطها بأي تعلق أفضل.

وتتمثل أخيراً في الانطلاق الغريزي، لأن العقل لما تثلم حده وعجز عن النظر والضبط، وتقاصر سلطانه عن السيطرة على النفس والقدرة على توجيهها . ظهرت من وراء ذلك الغريزة الطبيعية، منطلقة على سجيتها.

ومن شأن الانسان انه كلما ازداد تحرراً من قوته الفكرية، ازداد ارتباطاً بدوافعه الغريزية. وما الانسان لولا ضوابط العقل والتفكير الا حيوان هائج ثائر الشهوات والاهواء، قلما تجد في مثل شراسته أي حيوان آخر.

ذلك لأن قوانين الغريزة في الحيوانات المختلفة تسد مسد العقل، عندما تتوقف حياتها على انبعاثات عقلية مدبرة. اما الانسان فان الغريزة فيه هي الدوافع واللواعج الشهوانية فقط. إذ كان في وجود العقل وقيوده ما يغني عن ضوابط الغريزة وتدبيرها. فاذا ضاعت حكمة العقل وزال رشده، هاجت الغريزة هيجاً لا تجد مثله عند أي حيوان.

***

فهذه هي نتائج الصراع النفسي لدى الشباب، اذ ينعكس عن تناقضات المجتمع وازدواجه، على النحو الذي ذكرناه.

وهي نتائج لا مناص منها، ولا معنى للمكابرة في إنكارها، والواقع المشاهد يغني عن الحاجة الا أي برهنة نظرية عليها.

اللهم الا أن هذه النتائج تخف وتشتد، حسب درجة التناقضات القائمة في المجتمع خفة واشتداداً، أو حسب ما قد يكون للشاب من ظروف تدنيه أو تقصيه من هذا المجتمع المتناقض. وسوف نفرد لهذا العامل الثاني فصلاً مستقلاً فيما بعد.

***

مشكلة العثرات الاجتماعية

هذه مشكلة من نوع آخر،إنها قد لا تثير في نفس الشاب صراعاً للمعنى الذي ذكرناه. ولكنها تحجزه . جزئياً أو كلياً . عن مواصلة السير إلى الغاية التي يؤمن بها وتفقده الكثير من قدرته ضد ما قد يعترضه من تيارات معيقة.

ولن نستطيع في هذه العجالة أن نستعرض جميع هذه المشكلات. لنتناول بالبيان أهمها وأشملها.

هنالك مشكلتان خطيرتان يعانيهما الشاب من المجتمع، وتتكون امامه من كل منهما عثرة كبرى، تحيل امره مع سبيل الاستقامة والرشد إلى مغامرة شاقة تتغلب فيها احتمالات الهلاك على احتمال السلامة والنجاة. أولاهما تقابله في زحمة الشوارع والأسواق وما يتبعهما من المرافق العامة. وآخرهما تقابله ضمن جدران بيته عندما يتلاقى مع أفراد أسرته.

* ففي الشارع يرى الشاب من المناظر العجيبة المثيرة ما من شانه أن يذهبه عن جميع خصائصه الذاتية إلا خاصة واحدة هي انه حيوان (جنسي) يتوق من الدنيا كلها إلى شيء واحد هو الجنس!

هذه المناظر كانت ذات يوم مضبوطة بما يحكم به الدين أو الشرف أو الخلق أو القانون والنظام، ولكنها اليوم محكومة بعجلة السباق وحدها. فاذا كانت العجلة قد وصلت اليوم الى الكشف عن نصف الفخذ . فان لها ان تسابق الواقع فتصل غداً الى الكشف عن نصفه الآخر.. والعجلة سائرة والطريق أمامها مفتوح الى النهاية، لا يعترضها حد من الدين أو الشرف أو الخلق ولا حتى من الذوق!

إن العجلة مدفوع بها إلى الأمام(والأمام ما تستقبله العجلة في اتجاهها كيفما كان فلا جرم أنه ربما يكون في حقيقته وراءً) في طريق لا تصطدم فيه بشيء.. ولكن الشاب هو الذي يصطدم من آثار هذه العجلة بأعتى العقبات الهائجة في نفسه.

يريد الشاب أن يعطي من كيانه كله لوجوده كله، في تناسق واعتدال، بأن يعطي من تفكيره وعقله لأسرار الكون وحقائقه، ويعطي من إحيائه ووجدانه للحق الذي يؤمن به، ويعطي من غرائزه البشرية لبنيان المجتمع وقافلة الحياة . ولكنه لا يبصر من الوجود الذي حوله الا ما يعامل مع غرائزه البشرية فقط.

ولذلك فان من الطبيعي جداً . إذا ما التف به تيار هذا الوجود الجنس. تسأل عقله عن حقائق الكون، فتجيبك غريزته: هي المرأة! وتسأله لماذا يعيش: فيجيبك بملء كيانه: ابتغاء ليلة حمراء وفتاة 0حسناء!.

وليست المشكلة أن شباب هذا العصر تتقد الحرارة الجنسية بين جوانحه أكثر من الأجيال السابقة، فلذلك وهم باطل.
وانما المشكلة أن المجتمع لم يتعامل من مجموع كيانه الانساني كله إلا مع الغريزة الجنسية، فأيقظها، بل أثارها، بشتى المغريات والمهيجات، في الوقت الذي راح يهيء لبقية ملكاته وطبائعه الانسانية الأخرى مزيداً من أسباب السبات العميق.
ولتصاعد المغريات الجنسية وازديادها، عاقبة خطيرة جداً على الجيل كله، قلما تنبه لها المفكرون والباحثون.
وبيان ذلك أن أسباب تفقد قسماً كبيراً من فاعليتها، مع طول الاعتبار والنظر، وعندئذ يتطلب الامر تصعيد عوامل الاغراء لتجديد فاعليتها وإعادة ضرامها!.. ويسير الأمر: متلاحقاً،على هذا المنوال دون ان يقف عند حد: طول الاعتياد يبعث على الملل ويدفع الى الجديد،وعوامل التهييج والاغراء تترك على سجيتها لتدخل في سباق تصاعدي مع عوامل الملل والتقادم!.. سبق مستمر، لا يقف عند حد، الا الحد الطبيعي الذي تقف عنده المتعة وتنتهي أمامه اللذة. ولكن طول الاعتياد يظل يحقق قانونه حتى عند الوصول إلى قمة المتعة ونهاية اللذة الممكنة. فيتبرم الجيل الذي وصل الى كل شيء، بكل شيء. وتمضي النفس تبحث في هياج غريب عن مزيد من الجدة وجديد من المتعة!..
فذلك هو بدء الجنون في أخطر أشكاله على المجتمع ومقومات الحياة كلها!..
وقد رأينا مبادئ هذا الجنون بل كثيراً من آثاره في جهات كثيرة من العالم الغربي، وان عوامله لتسير في سرعة مذهلة متجهة الى أخطر العواقب الوخيمة على ذلك العالم بأسره.
وإن مجتمعنا ليسير في الطريق ذاته، وإن السباق المطلق بين عوامل الاغراء الجنسي وعوامل الملل والسآمة، ينطلق بكل ما يملك، ولا يلوح في الطريق أي حد يقف عنده هذا السباق الانتحاري. اللهم إلا ذلك الحد الطبيعي الذي تبدأ من ورائه مرحلة الشذوذ والجنون.
إن الشاب المسلم تقابله من هذا الواقع الاجتماعي الخطير، عقبة خطيرة لا يتأتى اجتيازها إلا بما يشبه الخوارق والمعجزات. إنها عقبة تصده عن السير في طريقه إلى الله.. وإنها لعقبة تصده عن السير إلى أي لون من ألوان الدفاع عن أرضه أو كرامته أو أي شيء من مقومات وجوده، وإنها لعقبة تصده عن أن يمضي في طريق تكوين ذاته وتنمية إنسانيته ومداركه. إذ من شأنها أن تعمل على تذويب هذه الدوافع كلها في نفسه، ثم صهرها في قالب غريزي جنسي مجرد!..

***

* اما في البيت، فتقابله . في كثير من الحالات . عثرة اخرى من نوع آخر، ولكنها قد لا تقل خطورة عن النوع الأول .
وبيان ذلك ان الواقع الاجتماعي الذي وصفنا جانباً منه فيما مضى، جعل الأسرة تتألف (في اكثر الأحيان) من افراد مختلفي النزعة والاتجاه والسلوك، وذلك تبعاً لما انعكس عليهم من ازدواج المجتمع وتناقضه وتبعاً لما قد انتهت اليه مغامرة كل منهم مع تياراته المتصارعة.
وبناء على ذلك فكثيراً ما يحدث أن ينشأ الشاب أو الفتاة وقد قاوم هذه التيارات الجانحة واحتفظ لنفسه بجواهر من الفطرة الانسانية السليمة،يحوطها ايمان بالله والتزام لصراطه. فيشمئز احد الابوين أو كلاهما، او سائر افراد الاسرة من استقامته السلوكية ومنهجه الديني، اذ كان ذلك . بالنسبة لما قد تعودوا عليه . داخلا تحت ما يسمى بالشذوذ والتزمت والانطواء وما شاكل ذلك من الالفاظ المشابهة.
فيجند الجميع انفسهم لمقاومة هذا المسكين، وربما استعمل الابوان او احدهما احط الوسائل لالجائه الى التخلي عما قد آمن به قلبه وخضع له شعوره واستقام عليه سلوكه، فيحرمانه أو يحرمانها من المصروف الضروري وحاجات الكسوة والغذاء، رغم وفرة المال واتساع الرزق الذي اكرمهما به الله.
أجل!.. ان هذه المقاومة الضارية العجيبة ليست وافدة استعمار اجنبي او صهيونية شرسة او عدو اجنبي للدين، ولكنها مقاومة أبوين(مسلمين) يرددان بألسنتهما شعار الاسلام، وربما كان الوالد يغشى المساجد بين الحين والآخر، وربما كان كل منهما يصبغ نفسه من الدين بصبغة تقليدية من الشعارات والألفاظ.
وهكذا فإن الغربة تلاحق الشاب المسلم أينما حل أو ارتحل.

ولا اتصور ابتلاء اعظم من ان يتحول البيت الذي هو سكن الانسان وقراره، الى عنصر مقاومة، ومن ان يتحول الذين فيه، وهم اقرب الاقربين، الى غرباء مقاومين ومشاكسين!.

اما في احسن الظروف المناسبة لحال هذا الشاب، فلابد ان يكون البيت . الا في الحالات النادرة . بعيداً عن المظاهر والآداب الاسلامية.

فالأقارب والأحماء في اختلاط وتمازج دائم.. والاوقات تقتل باللهو الذي لا يرضى عنه الله ولا يأتي بأي طائل .. والعورات مكشوفة.. والانظار تسترق المحرمات الفاضحة وتبعث بها الى النفس الجياشة لتعيش في احلام آثمة.

ان مثل هذا البيت، لا يمت الى المنهج ولا الخلق الاسلامي باي نسب، وليس من شأنه ان يترعرع فيه أي صغير على الفطرة الاسلامية المهذبة. فلا شك انه غريب في هذه الحالة ايضا بكل اشخاصه واحواله واجوائه عن هذا الشاب الذي يريد ان يحتفظ بخلقه ودينه.

ولذلك فإن الواحد من هؤلاء الشبان لا يكاد يستأنس من بيته كله الا بغرفته الصغيرة التي يأوي اليها ويغلق على نفسه بابها كلما آواه المبيت او اقبل اليه لحاجة راحة او طعام وشراب.

فان امتزج وساير وجالس..تعرض لأخطر ما يتهدده من ضياع الذات وانمحاق الهداية وانحراف السلوك.

واكثر ما يؤرق هؤلاء الفتية، وقوعهم بين مشكلتي التعرض لغضب الله عز وجل والتعرض لسخط الوالدين او احدهما.

فإن احدهم اما ان ينصاع لأمر الله عز وجل في سلوكه او شيء من مظهره، فيغضب بذلك أحد ابويه ويصبح عاقاً له خارجً على أمره، واما ان يعصي الله عز وجل ويستهين بشيء من أوامره وحرماته، فيبر بذلك أبويه وينال رضى قلبيهما وسرور نفسيهما.

وليس المهم في حل الاشكال ان يذكر قول الله عز وجل:(وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً) وانما المهم ان يعلم كيف يكون حكيماً ولبقاً فيطيع الله تعالى من حيث لا يغضب ابويه، ليحقق بذلك معنى قوله عزوجل:(وصاحبهما في الدنيا معروفاً).

***

وبعد، فإن هاتين المعضلتين هما برأس المشكلات الاجتماعية التي يتعثر بها الشاب في الطريق الى تكوين نفسه، وفي الطريق الى بلوغ مرضاة ربه. وان من دونهما مشكلات فرعية اخرى لا مجال لذكرها في هذا المقام.

***

علاج هذه المشكلات

وبعد، فربما كان تحليل هذه المشكلات أمراً يسيراً على الباحث. فما من شاب صادق مع نفسه إلا وهو يحس بها ويعيش مع دوافعها وآثارها. وربما كان الحديث عن مدى خطورة هذه المشكلات أيسر وأسهل، فما من واحد ممن يعاني من بلائها، الا وهو يدرك مدى سوء وقعها على المجتمع والفرد ويتصور فظاعة المأساة التي ستحيق بالأمة على أعقابها، لا ينكر ذلك إلا مكابر من طراز عجيب.

ولكن المهم هو البحث عن علاج لهذه المشكلات.

ان نظائر سائر المخلصين من ابناء هذه الامة لتبحث في هلع عن أي علاج يقطع دابر هذه المخاطر الكبرى او يخفف من وقعها، قبل حلول الكارثة التي لا يجدي معها علاج.

***

ولكن الى من نتجه بالحديث عن العلاج والدعوة اليه؟ الى المجتمع وقادته ام الى الشبان وذويهم؟

قلت لك في أول هذا البحث، إن المريض هو المجتمع وليس الشباب، وليست مشكلات الشباب إلا اثراً من آثار مرضه هو.

وإذاً فالعلاج يجب ان يقدم الى المجتمع لا الى احد من افراده.

ولكني قلت ايضا: ان حديثي عن مشكلات الشباب ربما مر دون ان يأتي بطائل، لأن الذين تؤرقهم هذه المشكلات لا يملكون سبيلاً عملية الى حلها.

وما كان الكلام وحده ليغني يوماً ما عن وسيلة التنفيذ شيئاً.

غير اني سوف أتجه على كل حال . بكلمة النصح والتحذير الى اذن المجتمع أولاً، واضع بين يديه دواء دائه الخطير، دون ان املك له من وراء ذلك سوى حرقة نفسي واخلاص قلبي.

فإذا فعلت ذلك، ونفضت يدي من كل جهد لم ادخره في محاولة ايقاظه وتقويمه . توجهت بعد ذلك الى الشباب لالفت انظارهم الى السبيل التي اعلم انها ليست علاجاً لحالهم، ولكنها قد تكون، مجرد دفاع سلبي لا بديل لهم عنه، تجاه مصيبة داهمة لا مرد لها.

سوف يكون الجزء الاول إذاً من حديثي في هذا الفصل، بياناً للعلاج الحقيقي لهذه المشكلات، يوصف للمجتمع في هيئته التركيبية لا للشبان من حيث انهم افراد.

اما الجزء الثاني منه . وهو كما قلت ليس اكثر من تنبيه الى الدفاع السلبي ضد الكارثة مفروضة . فهو انما يقدم للشبان انفسهم.

***

فلنبدأ بالحديث عن الجزء الاول. ولنتساءل عن العلاج الذي ينبغي ان يؤخذ به المجتمع، لدرء هذه المشكلات والقضاء عليها؟

ونقول: ليس ثمة الا علاج واحد لا بديل عنه. وهو ان يكون المجتمع صادقاً مع نفسه ومتسقاً في مجموعه مع شتى اجزائه وجوانبه.

يجب ان يكون سير العلم والثقافة والتربية والفكر، متجهاً فيه نحو تحقيق غاية لا مشاكسة فيها ولا اضطراب.

ويجب ان تكون القيادة لوضع الغاية والهدف بيد العلم وحده. حتى اذا اشارت الحقائق العلمية، من فجاج الحياة ومسالكها ومذاهب الباحثين فيها، الى واحد معين منها، وجب على المجتمع ان يحرك سائر مرافقه واجهزته باتساق كامل نحو ما أشارت اليه تلك الحقائق.

ان محاولة اكتشاف الحقيقة، اقدس ما يمكن ان يقوم به الانسان في أي زمان ومكان. والنبراس الوحيد الذي يمكن ان يسير مع الانسان في هذه الرحلة انما هو العلم.

فإذا ما اوصل العلم الانسان الى الحقيقة، وكشف له عن غوامضها وملابساتها، فليس أمامه عندئذ سعي اقدس من ان يخضع حياته لمقتضيات تلك الحقيقة ومن ان يجعل من الحضارة حصناً يقي العقل عن ان يتيه عنها بعد ان عثر عليها.

وما ينبغي ان يكون للقيم المقدسة في المجتمع، من دين وخلق وفضيلة ونحوها، أي قيمة ذاتية، الا بمقدار انسجامها مع الحقيقة الكبرى التي كشف عنها نبراس العلم وقانونه.

ومن ثم فما ينبغي ان يظهر أي اضطراب او تشاكس بين هذه القيم في المجتمع، مادام أنها جميعاً تستظل بظل الحقيقة العلمية،ويأوي الى سلطانها.

ولكن هل علم المجتمع اهله معنى(العلم)؟.. وهل نبههم ذات يوم الى الحواجز الطبيعية الكبرى التي تقوم بين الحقيقة العلمية التي لا مرد لها، والنظريات المظنونة، والفرضيات المشكوكة؟ .. وهل أنبأهم بأن الحقيقة العلمية واحدة، لا يمكن أن تتخالف أوتتناقض؟.. وهل أدخل في تفكيرهم وأعماق نفوسهم . في أي مرحلة من المراحل التربوية او التعليمية التي يؤخذون بها . ان الحقيقة العلمية هي سيد الغايات الانسانية كلها؟ وان جميع الأهداف المتفقة الأخرى ينبغي أن تكون لاحقة بها آتية من ورائها؟..

إن المجتمع لم يعلم أفراده شيئاً من ذلك، بل انه رباهم على خلافه، مكتفياً ببث ما لكلمة(العلم) من رنين جميل في الاسماع، وضخامة في النطق.

لقد تعلم الناس من المجتمع ان يتخذ كل من كلمة(العلم)مطية لما قد يهواه من الافكار: فالعلم عند الرجل الماركسي هو ما يراه ماركس وأشياعه من سيطرة التوالد الديالكتيكي على حركة العالم، والعلم عند الداروينيين ما يراه دارون من توالد الانواع الحية عن بعضها، اما العلم عند الأدريين فهو ما يراه السوفسطائيون من ضرورة نبذ العقل وعدم الاعتماد على شيء من أحكامه.

إن هذا التدافع ان دل على شيء انما يدل على أن كلمة(العلم)تستعمل ظلماً في غير مكانها، وعلى أن المذاهب الشخصية، بما تنهض عليه من عصبيات وأغراض شخصية هو محور السلوك والنظر؛ وليس العلم أو الحقيقة العلمية كما يزعمون؛ والا لجعلهم اختلافهم يقرون بان الحقيقة العلمية مدفونة في مكان آخر بعيد عن حلبة صراعهم.

ان على المجتمع ان ينبه افراده الى منهج البحث عن الحقيقة؛ والى الميزان الذي تتميز به الحقائق عن أشباهها المفترضة أو المظنونة، وأن يغرس فيهم حب الحقيقة لذاتها وان يعلمهم في سبيل ذلك كيف يقرؤون ولماذا يقرؤون[6].

ومن المعلوم ان مجتمعاتنا السابقة، أهمها هذا الأمر كما لم يهم أي مجتمع آخر. فراحت تشق طريقاً الى معرفة الحقيقة (لذاتها لا لشيء آخر) وسط صراعات المتصارعين وخلافات ذوي النحل والاهواء، فاذا الطريق بين المعالم والحدود بما قد اعتمدته من المنهج العلمي في البحث والموازين المنطقية التي من شأنها ان تميز بين الحقائق والأوهام والظنون.

وأخذت مجتمعاتنا السابقة تسلك بأفادها، بعدئذ، في هذا الطريق، لا تدفعهم الى شيء اقدس من اكتشاف الحقيقة، ثم التثبت من انها هي الحقيقة. وراح الافراد يتلقون تربية قوامها مبني على شعار اساسي واحد هو أن(المنقذ من الضلال)[7]انما هو معرفة الحقيقة ثم التعامل معها في شتى مرافق الحياة.

فكان أن أنبأتهم الحقيقة بأن هذا الكون انما هو صنعة خالقه، وأن هذا الخالق ليس عابثاً ولا لاهياً في خلقه، وأنه جل جلاله قد أرفق خليقته هذه ببيان الى الانسان يوضح كيف خلق،ولماذا، وما هي وظيفة كل جزء أو جزئي من هذه المكونات، ثم ما هي وظيفة الانسان ذاته، وما هي الصلة القائمة بينه وبين ربه، وما هو المصير الذي سيلقاه بدون أي ريب في عاقبة أمره!..

وواضح جداً أنه ليس شرطاً لصدق هذه الحقيقة أن يصدقها الناس جميعاً، ولكن الشرط السليم لذلك أن يصدقها كل ذي عقل منصف حر، لا يحمل عقله في اول الطريق اغلالاً من عصبيته ورغباته، والشرط الثاني، أن يقوم بينها وبين نظر العقل منهج من البحث العلمي السليم الذي من شأنه أن يميز الحقائق عن أشباهها وملابساتها.

ومجتمعنا اليوم . على ما فيه من تشاكي وتناقض مع نفسه من جزاء ما قد ذكرنا . لا يسعه إلا أن يقر بهذه الحقيقة ويصاع لسلطانها، تنبئك عن ذلك صبغته الاسلامية العامة، السارية في كل مرفق من مرافقه، والسائدة في مدارسه ومعاهده، والكثير من قوانينه وانظمته.واذاً فلنعد مرة أخرى الى السؤال: ما هو العلاج الذي يصلح من شأن المجتمع إذاً؟.

وقد قلت لك: ان الذي يصلحه انما هو شيء واحد، هو أن يكون صادقاً مع نفسه، متسقاً مع شتى أجزائه وجوانبه.

يصلحه إذاً . وقد أقر بالاسلام وسبيله . ان يحرك أجهزته باتساق وتعاون نحو هذا السبيل. فالمدارس بمختلف مقرراتها ودروسها ونظمها يجب ان تضفر سائر جهودها في هذا السبيل، والحركة الثقافية التي تتمثل في نشر الكتب والصحف ونشاطات وسائل الاعلام يجب ان لا تند أو تنحرف عن هذا السبيل والقيم والمبادئ التي يدين لها المجتمع بالولاء يجب أن لا تكون شيئاً يتناقض مع القيم الاسلامية ومبادئ الاسلام. ومنهج التطور والتقدم والرقي يجب ان يكون محصوراً ضمن سلم الاسلام ومنهجه.

أجل.. فما ينبغي ان يتلاقى في سمع الشباب حديثان يتعارضان، أحدهما يردد بإجلالٍ آيات الله وبراهينه، والآخر يسفه تلك الآيات والبراهين.

وما ينبغي أن يلوح للشبان بعقبة من يعاكس الفتيات وبحطة من ينحرف الى معاطاة الرذيلة، ثم ينقلب هؤلاء الملوحون أنفسهم فيشجعوا مغريات الرذيلة ويصفقوا لمظاهر العري ونداء الجنس ودوافع الانحراف!.

وما ينبغي ان تترك المدارس حقلاً للتنافس في النزعات الفكرية المتصارعة،على جانب درس الدين الذي يتلقاه التلاميذ من

مدرس مسؤول وبشكل نظامي ورسمي.

وما ينبغي ان ينشر في صحيفة أو مجلة سيارة حديث ديني يذكر الناس بالخالق وحسابه، وينشر الى جانبه حديث آخر يهزأ بالدين ودلائله وقوده.

وما ينبغي أن يجهد نفسه كاتب مثلي بالبحث في حلول مشكلات الشباب، على حين يعكف آخرون على اضرام المزيد من نيران هذه المشكلات.

وما ينبغي ان تكون لنا قيم ومبادئ نقر بها . كما قلنا . ثم تكون ثقافتنا التي نعتد بها تعبيراً عن قيم الآخرين: نفخر بلغتنا وآدابها ثم نركن الى الثقافة التي تستهدف خنق هذه اللغة وآدابها!. ونفخر بتاريخنا العظيم ثم نستعير من الآخرين ثقافتهم التي تطبع تاريخنا الأبلج هذا بطابع التخلف والانحطاط!.

نقول هذا كله فما اذا كان المجتمع يقر حقيقة بالاسلام وسبيله كما قلنا:

أما إن أريد له سبيل آخر غير سبيل الاسلام، فإن علينا أن نستعجل في عرض البديل!..

وما هو البديل الذي يحرس كيان مجتمعنا، ويعالج مشكلاته، ويحقق مصالحه؟

إن أي بديل عن الاسلام، يوقع المجتمع عامة، وشبابه خاصة،في أخطر من المشكلة التي نبحث الآن عن مخرج منها.

إن الجنون الذي سيطر على رؤوس الشبان في امريكا وانحاء واسعة من اوربا، حتى راح يدفع أمواجاً منهم الى الانتحار،ويدفع بأمواج اخرى الى العزلة وممارسة البهيمية المطلقة . إنما هو جنون الفراغ والابتعاد عن الدين. إذا كان الدين في حياتهم لا يعدو شعارات تقبع في المعابد والكنائس، أما المجتمع والسلوك ومعايير النظر والبحث فأمل بعيد كل البعد عن الدين واحكامه واخلاقه.

ربما يحلم البعض ببديل يتمثل في الحضارة الغربية!. وربما ظنوا أن هذا البديل يكسب المجتمع أصالة جديدة ويحل الكثير من مشكلاته.

ولكن على هؤلاء الناس أن يدركوا بأن المسلمين يستطيعون بكل سهولة أن يخرجوا على مبادئ الاسلام، وأن يحيدوا عن صراطه الذي ارتقى بهم الى اوج التاريخ، ولكنهم لا يستطيعون في يوم ما أن يكتسبوا أي اصالة أو حياة عزيزة من وراء هذا الانحراف والخروج.

إن الذي سيتم، بالتأكيد، بعد محاولة استحرار الحضارة الغربية الينا، هو أننا سنقع في جو من الفراغ النفسي، وسننتهي الى حالة تشعرنا بأن أي تاريخ لا يتعرف علينا وسنجد أن الأمم كلها تنظر إلينا بهذا الاعتبار، أي كمتطفلين تتقاذفنا جدران الحضارات التي نتطفل عليها.

وستتراكم على نفوسنا مركبات النقص، وسيحول كل ذلك بيننا وبين الوصول الى الثمار التي نتخيلها وتتحلب منا الأشداق شهوة اليها.

ذلك لأن حضارة الأمة ليست إلا عصارة ثقافتها، وثقافة الأمة ليست إلا ثمرات فكرية لما قد تواضعت عليه من قيم وعقائد وعادات ولما قد أدبرت عنه من ماض وتاريخ ولما تستقبله من ظروف ومشكلات.

وإذاً، فلا جرم ان استيراد الحضارة الغربية، أو أي حضارة لأمة اخرى غيرنا، يعد استيراداً لتاريخ تلك الأمة وظروفها والقيم التي تعتد بها، ليحل كل ذلك محل نظيره في حياتنا الذاتية. وهل هذا إلا كمن يستعير من صديقه بطاقته الشخصية ليستفيد منها في مكان بطاقته هو!

وهل من شك في ان الأمة لابد أن تقع من جراء ذلك بصفائها الفكري ومقاييسها المنطقية، ولابد أن تتجمع رواسب ذلك كله داء وبيلا يعلق بكيان الشبان الذين هم طليعة الأمة وعصب القوة والابداع فيها.

إن على هؤلاء الناس ان يتنبهوا الى انهم إنما يشتهون بديلاً عن الاسلام، لا انهم يشعرون بالحاجة الى البديل. وفرق كبير بين الحالتين.

ان سبيل الاشتهاء يسير، يسلكه العقلاء وغيرهم، لأن دوافعه الغريزة، وليس الانسان اغنى بها من البهائم. ولو كان لشهوة

الغريزة أن تصلح فاسداً لظهر الصلاح في عالم البهائم.
أما الذين يبحثون عن البديل، لأنهم يشعرون بالحاجة اليه، فليسألوا عنه عقولهم وتجاربهم، ووقائع الدنيا التي من حولهم، وشقاء الغرب بحضارته،ورثاء العالم لشبابه. ثم ليقولوا منصفين صادقين،هل يجدون عن الاسلام من بديل؟

***

وبعد، فان هذا هو العلاج الحقيقي لمشكلات الشباب، ينبغي أن يأخذ به المجتمع في هيئته التركيبية، كما قلت.
ولقد وصفته وعرضته بايجاز، ولست أدري أي موقع من آذان المجتمع سيقع، ولست أدري هل سيتبدد الحديث عنه كما تبددت صيحة في واد أم سيأتي من تحركه بقايا غيرة على هذه الأمة، فيتأمل فيما قلت بفكر منصف حر، ثم ينبعث الى المعالجة بسعي دائب وحكمة صائبة.
لست ادري.. ولكن تلك هي مدى طاقتي في معالجة المشكلة. ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا!..

***

علاج المدافعة والصّمود

إذا لم يجد العلاج من يستعمله، وكانت الصاعقة نازلة ولابد، فلا مفر عندئذ من تحصين المكان الذي تتجه اليه الصاعقة، واحاطته بكل ما يمكن من أسباب المدافعة والحفظ.
ان تكييف الظروف والأحوال قد لا يكون دخلاً في طوقنا لسبب أو لآخر .. ولكن الذي نطيقه بدون ريب هو الاستعلاء على هذه الظروف والأحوال وتحصين النفس والفكر من مغباتها وسوء أحوالها .
وهكذا، فان على الشبان الذين يبثون شكاويهم المختلفة، ويستفتون الكتاب والباحثين في أمر مشكلاتهم العويصة، أن يرضوا بأن المجتمع لن يصغي إلى شكاتهم، ولن يعالج نفسه من المرض الذي يعكس الآلام المختلفة على حياتهم، وعندئذ فليس أمامهم من سبيل إلا الاستعلاء على واقع المجتمع، واتخاذ ما يمكن من الأسباب للتخلص من عدواه والتوقي من مصائبه.
وهو سبيل ممكن ويسير اذا اتخذ الشاب من ارادته الحرة قائداً لسلوكه في لحياة. وعندما ينجح الشاب في هذا السبيل الدفاعي فانه لا يجني آثار ذلك لنفسه فقط، بل تمتد ثماره الى المجتمع ذاته.
ذلك لأن الموقف السلبي المتحفظ الذي يتمتع به الشاب في مثل هذه الحال، يعكس أخيراً نوعاً من الالجاء والاضطرار الى المجتمع لاصلاحه ومعالجة ادوائه.
لنتعرض هذه السبل الدفاعية، ولنحللها ونوضع كيفية الاستفادة منها واحدة اثر اخرى.
أولاً بالنسبة للمشكلات العلمية والثقافية:
وقد علمت مما سبق بأن كلمة(العلم) و(الثقافة)من أهم ما يفتتن به الشاب المثقف اليوم. ولذا فهو يحاول أن يقرأ كثيرا ، كيفما اتفق سبيل القراءة وأياً كان الكاتب أو العالم الذي يقرأ له.
وهذا الافتتان ينبغي أن يعد في الأصل مكرمة يتسم بها الشاب لا نقيصة وعيباً! إلا أن الأمر يختلف عن أصله الطبيعي نظراً لاختلاف الظروف، وحسب اختلاف السبل التي يريد أن يسلكها لتحقيق رغبته أو نهمه العلمي.
إن على الشاب أن يعلم بأن أكثر ما تقذفه الآلات الطابعة اليوم من كتب ونشرات تبحث في شتى المعارف والحقائق والعلوم، انما تعكس حيرة مؤلفيها فيما يعالجون، وفي أحسن الأحوال لا تعكس اكثر من درسات مبتورة لطائفة من المعارف، وقف بها باحثوها في منتصف الطريق أو ثلثه، فأصبحت بذلك خطراً على الحقيقة العلمية اكثر من أن تكون تيسيراً لها أو سبيلاً اليها.
كما أن على الشاب أن يعلم بأننا في عصر التجارة.. التجارة بكل شيء. ولعل(سلعة الكتاب) من اروج السلع التجارية في أسواقنا الاقتصادية. ولا جرم ان العامل التجاري اخطر عدو للحقيقة وأسرع حمض لتذويبها أو تحويلها أو سترها وتضييعها، مهما كانت تتمتع به من جذور القداسة والإجلال.

وإذاً، فان على الشاب . وهو بين يدي خوضه غمار الكتاب وإقباله على القراءة . أن يتعلم أولاً فن اختيار الموضوع ثم فن اختيار الكتاب، ثم طريقة القراءة ومتابعة البحث.

إن خطأ العفوية في اختيار الموضوع العلمي، لا يقل خطورة عن خطأ العفوية في اختيار مسألة ما من مسائل الموضوع الواحد للدراسة والبحث. أي كما أن هضم موضوع علمي معين لا يتم على وجهه السليم إلا اذا تدرج البحث في بدءاً من مقدماته فمسألته الاولى ثم الثانية المترتبة عليها ثم الثالثة.. وهكذا . فان الدراسة الشاملة لطائفة من المعارف أو العلوم لا تتم على وجهها السليم إلا على اساس ترتيب معين في التدرج من أشملها عموماً إلى ما هو أقل فأقل.

إذ أن علاقة المعارف والعلوم[8]المختلفة بعضها ببعض لا تقل أهمية عن علاقة مسائل الفن الواحد بعضها ببعض. فكما ان مسائل الفن الواحد تعد تتميماً لبعضها، فكذلك العلوم والمعارف المختلفة تعد في مجموعها سبيلا الى حقيقة علمية واحدة متكاملة.

وعلى سبيل المثال، ان الذي يولع بدراسة التاريخ، وهو فارغ الفكر عن أي يقين علمي عن الكون والانسان والحياة، قد يعلم علماً عن التاريخ وعصوره، ولكنه يعود بمزق فكرية مشوهة عن حقيقة الوجود وعوامله الذاتية الأولى, واكثر هذه المزق تتسلل الى ذهنه من عقيدة المؤرخ الذي يقرأ له، وبعضها الآخر يتألف عنده خطا من الأحداث او التحليلات التاريخية ذاتها.

ولابد أنك تعلم بأن المنهج الحديث لكتابة التاريخ يفرض على المؤلف فرضاً أن يقحم عقيدته التي هي وليدة ظروفه التي يعيش فيها، في تفسير الأحداث وتحليلها، مهما طلب منه أن يكون نزيهاً في التحليل والبحث.

وإذاً فلا بد لمن يدرس التاريخ قبل أن يدرس شيئاً كافياً عن حقيقة الكون والانسان والحياة، من أن يصبح فريسة، في هذا الذي يجهله، لعقلية المؤرخ واعتقاده، من حيث لا يشعر.

وعلى سبيل المثال أيضاً: ان الذي يولع بدراسة الشريعة الاسلامية ومقارنتها وتقويمها، قبل أن يدرس شيئاً كافياً عن سيرة محمد عليه الصلاة والسلام وحياته من المصادر العلمية الأصيلة لذلك . لا بد من أن ينتهي الى طريق مسدود في تحليلها، لذا فلا بد له من أن يكر عليها بتصورات خاطئة وأحكام باطلة.

فهو مثلاً لا يستطيع . وقد اغمض عينيه عن دراسة السيرة النبوية على وجهها السليم . أن يتصور بأن الشريعة الاسلامية قانون معلق، هكذا، بين السماء والأرض، وليس له نسب بشده الى السماء ولا جذور تربطه باحدى أمم الأرض، وانه انما وجد هكذا متكاملاً في صحراء الجزيرة العربية!.. ولذلك فهو يضطر . حلاً للمشكلة . أن يوصل نسبه الى اليهودية آناً، وإلى القانون الروماني آناً آخر، دون أن يتنبه بأنه تنكس بهذه الفرضية في أخطر جهالة تائهة ضمن الموضوع الذي يدرسه ليحاول أن يصل الى علم صادق فيه.

ولو أنه قدم على دراسة هذا العلم الفرعي أصله، فدرسه أولاً، لما التبس عليه الأمر ولما سدت في وجهه السبل.

وعلى سبيل المثال أيضاً: ان الذي يدرس قصة النشأة الانسانية وتطورها، دون أن يعكف قبل ذلك على دراسة النشأة الكونية في مجموعها ودون أن يبحث في وجود الله وخالقيته للكون، لابد أن يقع في دوامة محيرة بدلاً من أن ينتهي الى علم تطمئن اليه النفس.

لأنه يقرأ في ذلك آراء لامارك التي تفرض أن أنواع الاحياء كانت متمازجة في نوع واحد، ثم انها تفاوتت واختلفت تبعاً لتأثير الوسط والبيئة والحاجات العضوية المختلفة، ولكنه ما يكاد يستوعبها حتى يبصر سيلاً من النقد الكثيف قد أغرقها. وتطالعه بعد ذلك نظرية ما يسمى بالداروينية القديمة التي ترى بأن الانسان تطور من كائن بسيط تحت سلطان القانون الذي يعطي أولوية البقاء للأصلح، ولكنه ما يكاد يتفهمها حتى يفاجأ بسيل آخر من النقد والرد الجارح عليها: من الذي وضع مقياس الاصلح ورق بين الصالح والاسد وعلى أي أساس؟. أين هذا القانون من الطبيعة التي تجفف مستنقعات شاسعة أو تحسر مياهاً غامرة فتنطفئ على أعقاب ذلك حياة ملايين الأرواح التي كان من الممكن أن تواصل سيرها في فجاج الحياة، مستظلة بحماية القوة والصلاح؟. بل أين هذا القانون من الدنيا العريضة التي ترى كيف يزدحم فيها جميع أشكال الموجودات بدءاً من أصغر جزيئات الفاسد والضعيف الى أرقى نماذج الأقوى والأصلح، دون أن ينسج الصالح منها الفاسد عن الوجود؟

وينتهي من دراسة النقد الذي لا جواب عليه، لتطل عليه في أعقابه نظرية ثالثة تسمى بالداروينية الحديثة، تقول: إذاً بأن الانسان تطور تطوراً عشوائياً على أساس الطفرة لا على اساس الرقي نحو الأصلح. ولكن النقد يعود مرة ثالثة ليقول: فهلا شهدت الطفرة الانسان ذات مرة الى الخلف بدلاً من أن تنهض به دائماً الى الأعلى؟! وهلا تجاوزت الطفرة به مرة واحدة خط النظام الدقيق الذي يسير وفق خط مرسوم الى تحقيق علة غائلة مرسومة، وقد علم جميع العقلاء ان العلة الغائية تمثل أعقد عمليات التنظيم والتدبير؟!

ماذا فهم الشاب الذي درس هذا البحث على هذه الطريقة؟ وأي حقيقة علمية حصلها؟

إنه لم يقف، كما رأيت، إلا على مدافعات فكرية يفند فيها اللاحق السابق،وجميعها خاضع لنقد مكشوف لا يغفل عنه أي باحث.

وإنها لنهاية مسدودة لا مناص منها، ولا مفر من الحيرة عندها، مادام أن الباحث لم يبدأ قبل ذلك بدراسة مسالة اسبق منها في الشمول والترتيب الطبيعي أو العلمي، ألا وهي البحث عي النشأة الكونية الكبرى والبحث في وجود الله عز وجل وخالقيته الكون.

ولو أنه درس هذا البحث أولاً، لانتهى الى حقيقة ثابتة تسلمه المفتاح الذي يكشف به خوافي البحث الثاني وينجيه من دوامة الحيرة التي لا مخرج منها.أريد أن أنبهك من خلال هذا كله إلى أن المعارف والعلوم الكونية مهما اختلفت عن بعضها في الظاهر، فأنها مترتبة على بعضها في الحقيقة وواقع الأمر، وليس من سبيل إلى أن تتصور شيئاً منها التصور الصادق السليم إلا إذا استعنت على ذلك بمعرفة قاعدته التي هي أسبق منها وأشمل،

ولا ريب أن القاعدة الكبرى التي تنهض عليها شتى فروع المعارف والعلوم هي التأمل في وجود الله تعالى وخالقيته للكون، حتى اذا انتهى الباحث من ذلك الى يقين، انسكب له من ذلك وجه اليقين فيما يتعلق بالحلقات العلمية المترابطة الأخرى.

وإذا فإن على الشاب الذي يريد أن يتعلم، أن يكون على بينة من ضرورة ترتيب موضوعاته العلمية أولاً بأول،وان يقبل قبل كل شيء على دراسة العلم الذي هو مفتاح العلوم والمعارف المختلفة كلها، ألا وهو العلم الذي يبحث في وجود الله وصفاته وما يتعلق بذلك.

ولاحظ إنني لا أقول: على الشاب أن يعتقد. بل أقول: عليه أن يدرس! إذ لاخيرة في عقيدة لا يملكها رباط من العلم، فاذا سلم مقادته للعلم، فلا عليه أن يوصله العلم الى أي قرار أو اعتقاد.

إلا أن عليه أن يدرس ذلك على أساس من المنهج العلمي البين، أي المنهج العلمي الذي لا يخلط بين العلم الذي هو(العلم) والنظريات والفرضيات والشكوك والأوهام، وأن يبتغي هذه الدراسة عند باحثين تجردوا لمعرفة الحقيقة أينما كانت وكيفما كانت، ولا يتأبطون لدى بحثهم أغراضاً أو عصبيات أو مصالح أو أهواء معينة.

ولا جرم أن الشاب يبادرني هنا سائلاً فعلى أي المؤلفات أعتمد في تنظيم رحلتي العلمية، وعند أي الباحثين أجد الدراسة العلمية المنهجية المجردة التي لا يكتنفها غرض ولا هوى؟

والجواب إن العثور على هذه الأبحاث والمؤلفات لو كان ميسوراً، لما كنا نبحث الآن فيما نسميه بمشكلة العلم والثقافة.

لقد قلت لك: إن أكثر ما تقذفه الآلات الطابعة اليوم من المعارف والعلوم إنما تعكس حيرة كتبها ومؤلفيها فيما يعالجون ويبحثون، وإن جاءت تلك الحيرة متخفية في ثوب أحكام علمية مصوغة بأسلوب الجزم واليقين.

وقد علمت الآن أن سبب ذلك إنما هو عدم الالتفات الى مراعاة التسلسل التاريخي في دراسة المعارف والعلوم المترتبة على بعضها، وهي آفة يقع فيها أكثر المؤلفين والقراء على السواء.

وقد علمت الآن أن من أهم أسباب ذلك أن معظم الذين يؤلفون وينشرون، إنما يتوسلون بذلك الى ترويج مذهب يتعصبون له، أو الى تحقيق مصلحة يسعون الى تحصيلها، أو اشباع ضغينة تستخفي وراء صدورهم، أما مصير الحقيقة العلمية مجردة عن ذلك كله فهو آخر ما يمكن أن يلفت انتباههم ويستأثر باهتمامهم.

وتلك هي المشكلة التي نتحدث عنها.

ولكن إذا أبت المشكلة إلا أن تظل قائمة، أفيكون ذلك عذراً لأن يتخذ منها الشبان سكيناً ينحرون أنفسهم بها؟
إنه ليس أمامهم . وهذه هي الحال . إلا أن يلوذوا منها بموقف الصمود والمدافعة قدر الامكان.
وإنما يكون ذلك بأن يدرسوا قبل كل شيء المنهج العلمي للبحث عن الحقيقة، وهو مالا يأبه أكثر الكتاب ومعظم تجار المعارف اليوم. حتى اذا تسلحوا من ذلك بدراسة راشدة، بدؤوا من أنواع المعارف والعلوم بأشملها وأبعدها أساساً وجذوراً، وهو البحث عن وجود الخالق، ومدى ارتباط هذا الكون بمكونه جل جلاله. حتى اذا انتهى أحدهم من دراسة ما دونها من التاريخ والتاريخ الطبيعي،وقصة التطور وغير ذلك، ملزماً نفسه خلال ذلك كله بضوابط المنهج العلمي للبحث عن الحقيقة.
ولاجرم أن الخوض في هذا السبيل عمل شاق يشبه استخلاص خيوط الحرير من غصون الشوك أو استخلاص عروق الذهب من صخور الجبال وترابها. ولكن على الشاب أن يصبر على ذلك في سبيل معرفة الحقيقة!..
وله أسوة بمن يصبر صبراً أشق من هذا، لينال لؤلؤة من أعماق البحار، أو ليصفي حفنة ذهب من واد صخري سحيق.
ولسوف يجد في طريقه زملاء له يسعون مثل سعيه، ويصبرون على البحث مثل صبره. ولسوف يكون له من تعاونه معهم ما يذلل قدراً كبيراً من الصعاب وينير لهم الطريق بمصابيح النشاط والأنس.
ولن أطيل لك الحديث ، عن السبيل الذي ينبغي أن يسلكه الشاب حيال ما يواجهه من مشكلات الثقافة. فإن اعنها.
إن عليه ان لا ينسى الفرق الذي ذكرناه بين الثقافة والعلم لأمر في هذا مشابه لما ينبغي أن يتخذه حيال المشكلات العلمية التي تجد هنا.. فحقائق العلم تتمتع بذاتية مستقلة لا تتبدل ما بين أمة وأخرى، ولا يؤثر عليها عوامل العرف والبيئة والتربية.أما شؤون الثقافة، فملكات يستحوذ على الفكر والطبع جاءت حصيلة ما تتمتع به أمة ما من عرف وقيم وتاريخ وأصول في التربية والفكر والمعيشة.ولاشك أنها تنسجم أو لا تنسجم أو تقترب أو تبتعد عن الحقائق العلمية المتصلة بها حسب واقع تلك الأمة ونظرتها الحضارية الى الحياة وثمراتها.
فإذا ادرك الشاب هذا الفرق، أدرك من وراء ذلك ما نسميه بمشكلة الثقافة، وتنبه إلى مدى اهميتها وخطورتها.
إنه ينظر عندئذ فلا يرى في المجتمع إلا مزقاً متنافرة من ثقافات الآخرين، يشد إليها تاريخنا بحبال من الجبر والالزام، وتفرض على لغتنا مهما اختلفت هنا وتعرضت بسببها لأسباب الضيعة والانمحاق، وتكسى بها آدابنا ومنهجنا التربوية مهما انبثق عن ذلك من عوامل التناقض والازدواج!
ولاريب أن تصور المشكلة، نصف الطريق . كما يقولون . إلى حلها.
إن الشاب إذا أدرك هذا، تولدت عنده عوامل الرغبة في أن لا يذهب ضحية هذا التمازج الفاسد، واشتدت لديه الحوافز التي تهيجه إلى إقامة الحواجز بين ثقافات الآخرين، وما نعتز به من معين الحضارة، والتاريخ، والأدب، واللغة، والقيم.. على أن تمتد في مقابل ذلك شبكة من العروق العلمية تصل ما بين ثقافتنا وحياة الأمم الأخرى، من شأنها أن لا تمتص مما عندهم إلا والحياة عندنا.الفوائد العلمية المجردة، نغذي بها مختلف مرافق المجتمع
ولا ريب أن هذا السعي الآخر، لا يقل صعوبة معاناة للغربة والشذوذ، من السعي الأول الذي رسمناه للتخلص من المشكلات العلمية.
ولكنه على كل حال سعي ممكن، يتمتع بصلاحية هائلة لأن يوصل إلى النتيجة المطلوبة، وسيخفف من الصعوبات المكتنفة به، ما ينبغي أن يتصوره الشاب من أنه ليس وحيداً في السعي إلى هذه النتيجة، بل هو فرد متكرر في أشخاص كثيرين من الشباب يسعون مثل سعيه، ويدأبون مثل دأبه. وهل المجتمع إلا الفرد المتكرر فيه؟
فما عليه إلا أن يسعى سعيه الحثيث ليضاعف من كمية هؤلاء الافراد، وإلا المشكلة، بعد حين، معزولة عن المجتمع، لا تكاد تتمتع بأي سلطان أو تأثير.

***

ثانياً . بالنسبة لمشكلة الصراع النفسي

وقد قلت لك بأن مشكلة الصراع النفسي حصيلة أمراض متنوعة، ولكنها جميعاً تدخل تحت ما أسميناه:داء التناقض.
فإذا ابى هذا الداء إلا أن يفتك فتكه في المجتمع، وإذا ابى الطبيب إلا الازدواج أن يتركه ليرقب تفاقمه وآثاره الخطيرة عن كثب، فما هي وظيفة الشباب الذين هم هشيم تلك النار وحطامها؟
يعود مرة أخرى الى شرح السبيل الدفاعية، وموقف الوقاية والصمود، وهو السبيل الذي لا بديل عنه في هذه الحال.
ليس أمام الشاب في هذه الحال إلا أن يلتجئ الى احد قوارب النجاة.. وقوارب النجاة في خضم هذا المجتمع المزدوج المتناقض، انما هي تلك المجتمعات الصغيرة التي من شأنها أن تعصمه، إلى حد ما، من افات ذلك الخضم الهائج المتناقض.
إلا أن سبيل الالتجاء إلى هذه القوارب ينقسم إلى قسمين:
أما القسم الأول منهما، فان أمر توفيره وتهييئه عائد الى الأبوين، واما الثاني فأمره عائد الى الشاب نفسه. ولا أظن أن أحدهما يغني عن الآخر بحال.
ان أهم هذه المجتمعات الصغيرة وأقرها على الوقاية والحفظ، إنما هو البيت. إلا أن الممكن أيضاً أن ينقلب الأمر الى العكس، فيكون البيت أسوأ في تأثيره من ذلك الخضم المائج الذي يفر منه، فضلاً عن أنه لا يملك أن يعطيه أي وقاية أو حفظ والابوان فقط هما اللذان يقرران للبيت أحد هذين المصيرين!.
أجل .. فما من ريب أن الأبوين اذا تلافيا في ظل من الخلق والدين والوعي الثقافي السليم لضبط حياة كل منهما، تهيأت لهما من ذلك خلية ذات تأثير سحري على الطفل في توجيهه وضبط سلوكه ونوازعه. ولاجرم أن الطفل ينشأ في ظل هذا البيت نشأة سليمة تجعله غير آبه بالمجتمع الخارجي فضلاً عن أن يتأثر به.
ذلك لأنه يجد في البيت غذاء عقله وروحه ووجدانه. ومن ثم يجد فيه أنس قلبه، وطمأنينة نفسه، والسكن العاطفي لروحه. وذلك ما يجعله يثق بالبيت ووحيه ثقة كاملة تفرض عليه انقياداً سعيداً له وتأسياً فطرياً به، فلئن أطل خلال ذلك على واقع المجتمع الهائج من حوله، وفوجئ منه بما لا عهد له به. انكره بفطرته وطبعه أيما انكار،وعاد يتخذ من قانون مجتمعه الصغير(المنزل) أقوى رد عليه وأبين تخطئة له.
فإذا كبر الطفل وبلغ مرحلة الشباب والنضوج الفكري، كبرت معه تلك القيم والاسس التربوية أيضاً، وكان لها من رشده واستقلاله الفكري غذاء جديد يمدها بالقوة والصمود. الا انه، وقد درج من عشه الصغير ذاك وانطلق يصارع رياح المجتمع العاتية، أصبح بحاجة الى مجتمعات صغيرة من نوع آخر يلوذ بها عند الشدائد ويستعين بها لمزيد من الاستمرار والثبات.
هذا كله، اذا سعد الطفل بحظ وفير، وهيأت له الأقدار أبوين صالحين على النحو الذي ذكرنا. أما إذا كان الابوان بدورهما ضحيتين من ضحايا هذا المجتمع المتمزق المتناقض، فليس أمام الطفل . لاسيما في صبوته الأولى . الا أن يستسلم للمنهج الذي يحمل حملاً على السير فيه، ريثما يبلغ أشده وتتفتح لديه أسباب الرشد ومقومات الفكر الذاتي المستقل.
وعندئذ يأتي دور القسم الثاني من المجتمعات الصغيرة.
وهذا القسم الثاني قد يتمثل في صور مختلفة كثيرة، فربما تمثل في جماعة أو نخبة من الأصدقاء، لهم من الأخلاق الفاضلة والسلوك المستقيم وصدق التعاون البناء ما يسدون به سائر حاجات هذا الشاب ومختلف تطلعاته النفسية والاجتماعية، بالطريق المباشر أو بواسطة التعويض.
وربما تمثل في مرشد ناصح يحف به اخوان أو تلامذة صادقون، فهو يعيش من دنياه الواسعة كلها بين أكناف شيخه والانس باخوانه وزملائه.
فمثل هذه المجتمعات الصغيرة، تحقق للشاب الذي يركن الى سلطانها فائدتين اثنين:
أولاهما انها تجسد له . بواقعها المطبق المحسوس . تصحيح تلك الأخطاء والانحرافات التي يصطبغ بها المجتمع من حوله، وترد على الوهم القائل بأن هذا الوضع الاجتماعي . مهما كان شأنه وأثره . واقع لابد منه، وأن أمنية التسامي فوقه خيال (مثالي) مجنح غير قابل للتطبيق.

إن واقعية الدنيا الصغيرة التي يعيش في فلكها وضمن سلطانها، تؤكد له كل يوم خرافة هذا الوهم؛ عندما تضع له نموذج المجتمع الصادق مع نفسه، المتآلف مع بعضه، إلى جانب المجتمع المتشاكس الذي يأكل بعضه بعضاً، ويشيع في شتى جوانبه التناقض والنفاق. ثم تريه الآثار القريبة والبعيدة لكل منهما، بأضرارها البالغة أو فوائدها العظيمة.

ومعنى هذا الكلام: ان هذه المقارنة التي يعيش الشباب في جوها، تجعله لا يكاد يتأمل شيئاً من تناقض المجتمع الكبير الذي يعيش في أكنافه، ولا يكاد يبصر شيئاً من مظاهر النفاق والازدواج في الأول إلا إزداد تعلقاً بمظاهر الصدق والاستقامة في الثاني.

وهكذا، فبدلاً من أن يقع الشاب فريسة للقيم المتناقضة التي يحتضنها المجتمع الكبير من حوله، ويغدو سلبياً معقداً قد كفر بكل شيء تحمله بيئته الصغيرة التي يتفيأ ظلالها على أن يكون إيجابياً يكفر بالكذب والنفاق ليؤمن في مقابل ذلك بالاستقامة والصدق.

وإنها لقاعدة مستمرة في حياة الإنسان: إذا امتلأت لوحة الحياة أمامه بالتناقضات والأخطاء، انعكست صورة ذلك تعقداً واضطراباً في فكره ونفسه.أما إذا واجهته منها صورتان متميزتان، إحداهما تبرز التناقض المتشاكس بمختلف دخانه وآثاره المتصاعدة، الأخرى تبرز التآلف والانسجام على خط من الاستقامة والصدق بمختلف آثاره الطيبة المشاهدة . تهيأ له من ذلك مزيد من أسباب التفريق بين الحق والباطل.

ثم تهيأ له من ذلك مزيد من أسباب التعلق بالأول والنفور من الثاني.

فتلك هي الفائدة الأولى.

أما الفائدة الثانية، فهي أن هذه المجتمعات الصغيرة الصالحة، تبث في نفسه . بعد الذي ذكرناه . روحاً من الأنس، اذ تحول دون أن يشعر بجفاء العزلة التي فرضها على نفسه، بالانكماش عن وضار المجتمع، والابتعاد عن عواصفه واضطراباته. ذلك لأن له في الجماعة أو الاخوان أو الأصدقاء الذين يملؤون فراغات نفسه، أو المرشد الصالح الناصح الذي سرت روحانيته بالتأثير إلى قلبه له في ذلك خير تعويض عما كان يحتاج اليه من الاستئناس بالمجتمع واهله.

من أجل هذا أجدني مضطراً إلى أن أكرر في كل مناسبة لفت النظر إلى مدى أهمية الصداقة والأصدقاء في حياة الشاب المسلم، ولست أشك أن بضعة من الأصدقاء الذين يتسمون بالاخلاص في المعاملة والحكمة في الرأي، يحدثون من التأثير في حياة الشاب ما لا تحدثه أوقار من العلوم ولا ساعات طويلة من الموعظة والارشاد!. ولكن العكس ايضاً صحيح، فان ثلة من الأصدقاء تستطيع أن تنسف كل ما يملكه الشاب من مقومات الرشد في نفسه خلال سهرتين حافلتين فقط.

إن علاقات الصداقة في حياة الانسان، جسر خطير ذو أهمية بالغة، فاما أن يوصل صاحبه الى عاقبة من السعادة والخير، أو يزجه في ضرام من الغواية والشقاء.

***

ثالثاً . بالنسبة لمشكلة العثرات الاجتماعية:

وقد كنت حصرت الحديث عنها في مشكلتين رئيسيتين، إحداهما مشكلة الإثارات الجنسية في الشوارع والاسواق. والأخرى مشكلة تناقضات المنزل، وما قد يتبعها من حرب وخصومات وقد قلنا أن لهاتين المشكلتين العظيمتين فروعاً وذيولاً لا حاجة للحديث عنها إذا حالفنا التوفيق في معالجة أساسيهما الخطيرين.

فلنفرض أن هذه العثرات أبت إلا بقاء وعتواً في المجتمع. فما هي السبيل الدفاعية التي تجعل للشاب المسلم وقاية منها!

إنني أضطر هنا أن أتجه في حديثي إلى طائفة من الشباب فقط وهم الذين يتمتعون بايمان حقيقي بالله عز وجل.

أما الآخرون فليس من فائدة في الحديث معهم في هذا المقام، لأني لا أعلم لهم أي سبيل من سبل الوقاية أو العلاج.

وإلى الطائفة الأولى اتجه بحديثي فاقول:

أما أن تتوقعوا زوال هذه العثرات واختفاءها من طريقكم فهو خطأ كبير في تثور القانون الالهي في الكون. ومن اليسير أن

تتنبهوا الى ذلك إذا تأملتم قوله تعالى:(أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)، أو قوله عز وجل (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، وذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب).

إذاً فمبنى عبودية الانسان لله عز وجل، على مجابهة هذه العقبات في طريقه، ثم الصبر عليها والاجتياز من فوقها الى مرضاة الله عز وجل.

إلا ان هذه العقبات قد تخف أو تقل، وذلك عندما تحيا رقابة المجتمع الاسلامي، فيخف حينئذ عبء التحمل والصبر، وقد تشتد أو تكثر عندما تنحسر فاعلية المجتمع الاسلامي، فيثقل عندئذ عبء التحمل والصبر، وإنما الأجر .كما قال رسول الله (ص) . على قدر النصب.

وانما أنتم في زمن كتب الله للمستقيم فيه على صراط الله، مثل أجر الصديقين والشهداء في عصر النبوة، اذ كانوا يجدون أعواناً لهم على الحق، ولا تجدون. فكان صبرهم على الحق اذ زال أقل شدة ومرارة من صبركم اليوم.

ولكن ليس معنى هذا ان المنحرفين عن الحق اليوم لهم، في المقابل، من العذر ما يجعلهم أخف عقوبة ممن كانوا أمثالهم بالأمس.

ذلك لأن مناط الأجر التحمل والصبر فلا بد ان يتفاوت الأول حسب تفاوت الثاني. أما الوزر فمناطه الخوض في محرمات الله تعالى كيفما كان السبيل الى هذه المحرمات. وليس لأحد أن يشكو من وعورة الطريق الذي كان من حظه فقط، مادام انه قادر على الصبر، ومادام الأجر متفاوتاً بينه وبين الآخرين حسب تفاوت الصبر ومدى شدته.

وحصيلة هذا الكلام، أن خير وقاية يتحصن بها المؤمن من مثيرات المجتمع وعثراته انما هو الصبر. اذ هو محور التكاليف الالهية وأساسها. ألا ترى الى قول الله عز وجل:(يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون).

ولابد من أن يبادر الشاب فيسأل: ولكن كيف السبيل الى الصبر؟

فلتعلم يا أخي القارئ أن هذا السؤال ليس أكثر من صياغة لبقة لسؤال آخر صياغته الحقيقية هكذا: ولكن أليس من سبيل الا اتباع مرضاة الله بدون حاجة الى الصبر؟

والجواب: لا سبيل الى تحقيق مرضاة الله تعالى الا بما يستلزم الشدة والصبر. ومن العبث الذي لا طائل منه أن تفتش الى الجنة عن سبيل يسيرة وفقاً لما تبتغيه نفسك من الشهوات والأهواء.

هكذا اقتضت ارادة الله، ولا راد لحكمه وارادته.

ولكن اعلم أيضاً أن مسالك العبودية لله تعالى متنوعة متعددة، وكل منها ينهض عوناً للآخر. أي فاذا تكامل الدين في حياة الانسان وأخذ نفسه بسائر أحكامه وضوابطه، كان له من ذلك عون على اخضاع أهوائه وشهواته لاحكام الله عز وجل. أما اذا استيقظ وجدانه وفكره الى جانب واحد من جوانب الدين، بحيث أهمل الجوانب الأخرى، فانه يلقى في سبيل ضبط ذلك الجانب الواحد عنتاً شديداً.

وإذاً، فان الذي يعين المسلم على الصبر شيء واحد: أن تتكامل جوانب الاسلام في حياته! وانها لحقيقة مرة في كتاب الله في أكثر من موطن.

ألم تر الى قوله جل جلاله:(ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، والى قوله عز وجل:(واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين الذين يظنون انهم ملاقو ربهم وأنهم اليه راجعون) وقوله سبحانه وتعالى(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة).

وهكذا .. فان على الذي تهيجه المثيرات الجنسية ولا يملك سبيلاً للصبر على ما أمر الله تجاهها، أن يعود الى ايمانه باليوم الآخر وبما فيه من حساب وجزاء بالتقوية والتجديد. فانه لم يعدم لديه وسيلة الصبر الا لشك أو ضعف أصاب يقينه بيوم الجزاء. وكما ازداد المرء يقيناً بهذا اليوم، ازداد قلبه شعوراً به ورهبة منه. فأزداد بسبب ذلك قوة على الصبر والصمود.

ثم ان عليه بعد ذلك ان يتخذ من ايمانه هذا سلماً الى محبة الله عز وجل وتفريغ قلبه مما سواه، فلا يرغب الا في فضله ولا

يرهب الا من بطشه. سبيل ذلك ان يتنبه الى ان جميع مقومات وجوده وحياته وسعادته ونعيمه انما هو بفضل الله عز وجل، أن سائر ما تفيض به الدنيا من المكونات والمخلوقات المتناسقة المتجهة الى خدمة الانسان انما هو من أبرز مظاهر اكرام الله له والعناية به، وان كل نعمة اسداها الله اليك لتتمتع بها، من اليسير جداً أن تتحول بارادته الى نقمة تهلك بها، فالماء الذي جعله الله سر حياتك، يوشك، لو أراد الله، أن ينقلب الى اعصار مدمر، والأرض التي جعلها الله تعالى مهداً لعيشك ومخزناً لطعامك وشرابك، يوشك، لو أراد سبحانه وتعالى أن يحيلها الى فوهة تبتلعك أو حمم تقذف بك!. والحيوانات التي ذللها لك في الركوب والحرث، يوشك، لو أذن الله لها أن تهيج هياجها الرهيب فيذل لها الانسان بدلاً مما كانت تذل له.

وإن شئت فأصغ في بيان هذه الحقيقة الى قول الله عز وجل:

(أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حصبا فستعلمون كيف نذير).

أو الى قوله عز وجل(أولم ير الانسان أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا انعاماً فهم لها مالكون، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون).

فاذا تبينت هذه الحقيقة وعشت في ظلالها بالتأمل والفكر، أينع في قلبك حب شديد وتعظيم هائل لله سبحانه وتعالى، ما يلبث أن يأخذ بمجامع إحساسك وكيانك.

والمحب . كما تعلم . يسعى دائماً وراء رضى محبوبه، يخوض في سبيل ذلك كل شدة ويتحمل كل جهد، صابراً بل منتشياً وراضياً. فماذا تفعل مهيجات الجنس ومثيرات الانحراف، إذا كنت تسمع خلال ذلك نداء ربك يقول:

(ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيل).

ويقول:

(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم).

وقول:

(قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون).

لاريب ان تكامل الدين في كيانك، إيماناً، ورغبة، ورهبة، وتعظيماً، وحباً، يورثك قدرة هائلة على الصبر والثبات.

إن تأملاً يسيراً، من تأملات الرغبة، قي قوله عز وجل:(كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الايام الخالية)أو نظرة سريعة من نظرات الرهبة في قوله عز وجل(ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون)أو وقفة خاشعة عند قوله جل جلاله(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) . إن تأملاً في مشهد واحد من هذه المشاهد، لكفيل . إذا نهض على إيمان صادق ودين متكامل الجوانب . ان يورثك طاقة خارقة ويعجز عن وصفها البيان.

وانظر يا اخي الشاب: ان الرجل الذي ابتلى بحب المال وجمعه، أو بفتاة حسناء، أو بسلعة من سلع الدنيا، يخوض في سبيل الوصول الى مبتغاه نيراناً من العذاب الواصب، في جلد لا يتزعزع، لأن حب فؤاده قد تغلب على إلام جسمه أو مشاعره، ولأن شدة تعلقه بالغاية التي يطمح اليها طغى على العقبات القائمة دونها. إنه يذلل في سبيل ذلك نفسه، وينسى كرامته وكبرياءه، لأنه يرى أن جميع مقومات شخصيته لا قيمة لها ولا جدوى منها إذا لم تتحقق له الغاية التي يصبو اليها. هذه هي حال من افتتن بشيء من متاع الدنيا وأهوائها، فكيف تكون حال من قد تعلق قلبه بخالقها وفاضت مشاعره حباً له وتعظيماً وإجلالاً، وقد ايقن بملء عقله وفكره أنه وحده الضار والنافع، وأنه الذي يخلق سر السعادة في قلب السعيد ومعنى الشقاء في مشاعر الشقي، ثم ذاب كيانه تحت سلطان قوله عز وجل:(ففروا الى الله إني لكم منه نذير مبين)؟!

جمعتني صحبة السفر في السيارة بشابين تعارفا ثم انطلقا يتحادثان. قال أحدهما للآخر . وقد عرّف نفسه بأنه واحد من هؤلاء العرب الذين هاجروا إلى أقاصي امريكا من أجل الرزق . إنه يشتغل في بعض الأعمال الميكانيكية، ويحصل في كل شهر

على ما يقارب تسعمائة دولار، ولو علم أن العمل في كسح القمامة يغنيه بدولار زائد، لما تردد في ممارسة هذا العمل بسعادة وسرور!.. ثم أتبع ذلك بقوله: ان العنجهية العربية لا معنى لها أمام الهدف الذي هاجرت من أجله، وإنما هاجرت من أجل الدولار!

سمعت كلام هذا الشاب بإحساسي كله.. ورأيت فيه عبر عظمى لكل معتبر.ولم أجد فيه أي حرف يخضع لرد أو نقاش! أجل إن التعلق بالغاية، يذلل جميع العقبات القائمة دونها، مهما كانت الغاية في سموها أو دونوها.

وإذاً فالذي يقعد عن السير شاكياً لك وعورة الطريق، إنما يعبر لك، في الحقيقة، عن عدم تعلقه بالغاية. وبتعبير آخر: ان الذي يستسلم لمهيجات الجنس ودافع الانحراف معتذراً بأنه صبر وصابر فلم يتحمل، يجانب الحقيقة في كلامه، وإنما عذره الحقيقي أنه غير متعلق بالوصول الى مرضاة الله عز وجل.

إن صبر، يا أخي الشاب، على المثيرات والمهيجات التي تراها من حولك، ليس أشق من صبر ذلك الآخر على مفارقة الوطن والاهل ومعاناة التشرد والغربة وتحطيم المكانة والتضحية بالسمعة. ولكن الخلاف بينكما إنما هو في مدى تعلق كل منكما بالغاية. إن تعلقه بالدولار الذي غامر من أجله أشد من تعلقك بالخالق الذي تدين لحكمه!

وإذاً، فلتغذّ هذه العلاقة في كل من فكرك وقلبك ولتتأمل انك في قبضة خالقك جل جلاله، وان مصيرك الى الوقوف بين يديه، وانك عبده الذي لا تملك أمامه من أمر نفسك ووجودك شيئاً.

غذّ هذه العلاقة بالتأمل المستمر في هذه الحقيقة، واستعن على ذلك بذكر الله في البكور والآصار، والهج بتسبيحه واستغفاره بين الحين والآخر، ثم اذكر انه ما من نبي ورسول الا وعانى من المحن والمصائب اكثر مما تعاني، فما وهنوا لما اصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا.

ولتكن على يقين خلال ذلك كله، انك ان صبرت ملتجئاً الى الله بالدعاء والضراعة النابعين من الأعماق، اخرج لك من أسباب السعادة ما يغنيك عن أن انحراف ويبعد وقع هذه المهيجات عن نفسك، فقد تعهد ربك جل جلاله بذلك، بنص قاطع لا خلف فيه:(ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب).

ولكن الله يحب . يا أيها الشاب . أن يسمع نجواك وضراعتك، وأن تتحقق باسمى درجات العبودية له، فتعفر الوجه في سجود طويل له على التراب، يمتزج فيه داؤك بنشيج البكاء، وتعرض له ضعفك المتناهي وذلّك الذي يثير الرحمة والعطف. فانك إن فعلت ذلك، هيأ الله لك من أمرك رشداً، ورفعك بذلك إلى درجات الصديقين والربانيين وأراك من برهانه العظيم قبساً كالذي أراه ليوسف من قبل.

***

أما مشكلات البيوت . وأكثرها يقوم على التناقضات التي تثور ما بين الشاب المسلم وأهله المتهاونين أو المخاصمين للدين . فلا أرى من سبيل الى حلها الا سبيل الحكمة واللين والابتعاد عن العنف مهما اضطرت الظروف.

وإن الحديث عن هذه المشكلة وحلها، يذكرني بسياسة اللاعنف التي عرف بها غاندي بالنسبة لمختلف أعماله وجهوده السياسية، ولا ريب أن قدراً كبيراً من سر نجاحه يعود الى سياسة اللاعنف هذه. ولو أنه توج هذه السياسة بإيمان صادق بالله ورسوله، لكان له في أعقابها نجاح آخر يتجاوز عالمه الذي هو فيه، ولكانت الهند اليوم شيئاً آخر. ولكنه لم يهتد الى ذلك فبقيت سياسة صلعاء احتضنت ذلك النجاح الى حين، ثم عاد كل شيء كأن لم يكن[9].

ان على الشاب المسلم أن يستفيد من سياسة (اللاعنف) هذه من حيث هي منطق كلي خطير للخلق الاسلامي، ومن حيث هي جزء لا يتجزأ من بينة الاسلام الكاملة وانها لسياسة تتمثل رائعة مشرقة في قوله عز وجل:

(ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم).

غير أن كثيراً من الشبان، يغفلون عن هذه الحقيقة، ويعالجون مشكلاتهم المنزلية بما يزيدها شدة وتعقيداً.

ان احدهم يعد نفسه عنصراً غريباً في الدار، ثم يمضي في معاملة أهله على هذا الأساس. فهو لا يلتقي بهم إلا ماراً في الطريق الى غرفته ليدخلها ويغلق بابها على نفسه، ،أو جالساً معهم على مائدة الطعام تحت دافع من الضرورة القصوى، ثم

هو في سائر أوقاته منعزل عنهم، لا يكاد يشاركهم في شعور أو حديث أو فرحة أو مناسبة.
فلتعلم يا أخي الشاب ان هذا التصرف خطأ كبير!.
انك بهذا العمل، تكرس في افئدتهم مزيداً من عوامل الخصومة لك وأسباب الكراهية للدين. اما الخصومة لك، فلأن من الطبيعي ان يبادلوك جفوة بمثلها ان لم يزيدوا عليها ما قد تقتضيه ردود الفعل، واما الكراهية للدين فلأنهم يعدون ذلك منك ثمرة تدينك فيقررون في أنفسهم بأن التدين مقرون مع جفوة النفس وقسوة التعامل وانطوائية الحياة.
وواضح انك بهذا التصرف لست مخطئاً حسب، بل انت، بالاضافة الى ذلك تبعد أهلك عن مجال الرؤية الصافية للدين الحق، وتسيء إلى ما تقتضيه الدعوة الاسلامية من تحقيق اسمى درجات الخلق الاسلامي في معاملتك وسلوكك.
ينبغي أن تعلم انك، منذ اللحظة التي أكرمك الله فيها بنعمة الاستقامة على دينه، مكلف بدعوة الآخرين الى هذه النعمة بكل ما تملك من سبيل.
وينبغي أن تعلم أن الياس، في موقفهم من سماع كلمة الحق، فريقان: فريق يخضع نفسه للبحث والنقاش والعلم، أياً كان الباحث معه والمناقش له، سبيلك مع هؤلاء، التعليم والتوجيه والنصيحة.
وفريق آخر له من الظروف والأسباب ما يجعله يتابع على تعليمك ونصحك وتوجيهك؛ لما يرى لنفيه من مكانة يفوقك بها. وليس لك من سبيل مع هؤلاء . لاسيما في بادئ الأمر . إلا أن تعرض لهم (في سلوكك ومعاملتك معهم) النموذج الرفيع الكامل لشخصية الشباب المسلم. فحسبك من الدعوة إلى الإسلام . بالنسبة لهذا الفريق . أن تظل صامتاً وتترك أخلاقك الاسلامية الرفيعة هي التي تدعو وتتكلم.
ولاجرم ان الأبوين بالنسبة لابنهما الشاب، من هذا الفريق الثاني. ولذلك فانك لن تستطيع ان تهديهما الى صراط الحق عن طريق التابين عليهما والترفع عن واقعهما أو الانكماش عنهما وارسال ما يشبه نظرات الزجر والتأديب الى تصرفاتهما، مهما قرنت ذلك كله بالوعظ والنصيحة والتوجيه.
إن خيراً لك من ذلك كله، ان تضاعف البر لهما من ذاتك، وان تشعرهما، بسلوكك، ان الدين في حياتك لم يزدك الا حباً لهما وسعياً على خدمتهما وتفانياً في اسعادهما.
إن خيراً لك من الانكماش والعزلة عن الأهل في الدار، ان تجعل من نفسك خادماً للكبير والصغير فيها، تعطيهم كل ما تستطيعه من كيانك وجهدك ووقتك ومالك، وتشعرهم بالعطف الشديد على كل منهم والمحبة الخالصة لكل منهم والأبوان، مهما كان شأنهما، لا يبغيان من الابن مهما كان شأنه إلا مزيداً من البر بهما والخدمة لهما. فاجعل من هذه البغية في نفسيهما منطلقاً لحل مشكلاتك معهما، ولدعوتهما بعد ذلك الى الحق الذي اكرمك الله تعالى به. ولسوف تجد في سرورهما ببرك، باعثاً قوياً على سرورهما بتدينك وحسن استقامتك.
ولا ينبغي ان تفهم من كلامي هذا، أن لك ان تغمض العين عما لا يروق لأبويك من احكام الله تعالى، في سبيل برهما، أو أن عليك بدلاً من العزلة عن الأسرة أن تشهد معاصي افرادها وتجالسهم على منكراتهم.
لا.. ليس هذا داخلاً في شيء من كلامي. بل ينبغي أن تعلم أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.
ولكن الذي يجب أن يلفت اهتمامك البالغ هو دقة التطبيق لقوله تعالى:(..فلا تطعمها، وصاحبهما في الدنيا معروفاً).
وبيان ذلك ان والدك قد ينهاك عن بعض العبادات النافلة أو المفروضة، فماذا ينبغي أن تتخذ من الموقف أمامه؟
لاشك أن أمر الله مقدم على أمر الوالد، وأن إهمال نهيه لا يدخل في شيء من العقوق. ولكن العقوق قد ينشأ عن الطريقة التي تهمل بها نهيه.
ان المطلوب منك في هذه الحالة، أن تعتذر في منتهى الوداعة واللين، ثم تغرق اعتذارك هذا بمزيد من البر به والرعاية له والتفاني في خدمته.ولسوف تجد أن هذا العلاج الثاني يقدم أفضل الحلول للمشكلة الأولى.
ومع ذلك، فقد يكون هناك بعض الآباء الذين يبلغون في حقدهم على الاسلام مبلغاً يضحون فيه بحاجاتهم الشخصية والنفسية، فلا يحل المشكلة معهم أي علاج أو محاولة مما نقول. ولا أظن أن أمام ابنائهم المسلمين من سبيل لحل المشكلة

إلا الصبر على هذا العلاج ذاته.

إن بر الولد بأبويه، خليق به أن يحرك أبعد الكوامن الانسانية والعاطفية في قلبيهما، فاذا بلغ الأمر بهما الى الحد الذي فرغ فيه قلباهما عن سائر القيم والخلجات الانسانية، فان استمرار البر والرحمة لهما خليق به أن يوجد هذه الخلجات من العدم. فان لم توجد، فحسب الولد انه حصل بسعيه ذاك على كنز عظيم من رضى الله عز وجل عنه. وما ضره . بعد ان رضي الله عنه . ان لارضى عنه (رغم بره) أبواه.

***

ولكني أحب، في هذا الصدد، أن أتوجه بكلمة أخيرة إلى الآباء.

ومن الواضح أنني لا أتجه بها الى من كان منهم جاحداً بالاسلام منكراً لعقائده وأحكامه، فليس بيني وبين هؤلاء أي سبيل للتفاهم والالتقاء.

ولكني اتجه بها الى طائفة من الآباء، يزعمون انهم مسلمون، وربما كانوا يحضرون الجمع وبعض الجماعات، وربما رأيتهم في مواسم الدين والخير يتجملون بكثير من شعارات الاسلام وهديه. ولكنهم رغم هذا يضيقون ذرعاً بتدين أولادهم وما قد يتحلون به من الوعي الاسلامي السليم. فيذهبون في حرب هؤلاء الصغار كل مذهب، ويلجئونهم بالوسائل العجيبة المختلفة الى سبيل الغوية والانحراف، لعل طعم الغواية يحرفهم، ولذة الانحراف تسكرهم!

أعلم شباناً أطهاراً، يتعهدون انفسهم بالاستيقاظ في الأسحار ليقفوا بين يدي ربهم في ركعات ضارعة خاشعة، ولكن آباءهم في البيت يرون ذلك منهم جريمة لا تقبل الغفران او جنوناً يثير الاشفاق، فينحطون في محاربتهم والكيد لهم الى ادنى الدرجات التي قد لا تخطر في البال.

وأعلم فتيات مسلمات نبت غض الايمان بالله في أفئدتهن فاستجبن لنداء الله عز وجل فيما أمرهن به من الصيانة والستر، وأخذن يدنين عليهن من جلابيبهن أو أرديتهن، ولكن أنوف الآباء والأمهات ورمت بهذه الاستجابة الواعية لنداء الله عز وجل، فجمعوا جهودهم على حربهن ومغايظتهن والكيد لهن. حتى بلغ الأمر بالكثير منهم ان ضيقوا عليهن سبل الانفاق والعيش، يقبلون بالإكرام الوفير على البنت المستهترة البعيدة عن الدين، ويكمشون في الوقت ذاته عن اختها التي استقامت على امر ربها ولبت نداء دينها في مغايظة وإزدراء.

فالى هؤلاء الآباء أتجه بكلمة أخيرة في هذا الفصل:

أمّا أن يكون الشيطان قد نال منالاً، ووصل إلى بغيته منكم، في حملكم على بعض سبل الغواية والعصيان، فلذلك أمر شخصي ليس لنا عنه في هذا الصدد مقال.إذ ليس في الناس . بعد الأنبياء . منزه عن المعاصي والأوزار . بل الكل خاطئون، وخير الخطائين التوابون.

ولكن الخطير جداً في الأمر، ان ينقلب واقع العصيان في حياتكم الى سبيل تذودون عنه ومبدأ تدعون اليه وحق تحرسونه وتغرون عليه!. وإنما المعاصي . فيما تقضي به عقيدة كل مسلم . منزلق تزل فيه القدم كرهاً، فلئن لم يتحرق القلب تأثراً منها وندماً، فانه لا يعقل على كل حال ان يتخذها صاحبها راية يدعو اليها ويدافع عنها ويحارب أقرب الناس اليه في سبيلها!

انه لكسب عظيم في حياتكم دون أن يستدعي قياماً بأي عمل أو بذلاً لأي جهد، أن ينعم الله عليكم بأولاد تفيض قلوبهم الغضة إيماناً به وحباً له ومخافة منه ويسلكون في حياتهم مسلك العبودية له عز وجل، ويحملون أنفسهم على السير في الطريق التي رسمها وسار فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام. ذلك لأنه ما من عمل صالح يقربون به إلى الله عز وجل إلا كتب مثله في صحائف أعمالكم، ورأيتم جزاءه في وقت انت احوج ما تكونون فيه الى النزر اليسير منه.

أجل.. ان الولد الصالح . ذكراً كان أو أنثى . كنز أنعم الله به على أبويه بدون جهد، يجعل من حياته الصالحة امتداداً لحياتهما، ويجعل من صحيفة أعماله الطاهرة امتداداً لصحائف كل منهما، فاذا طويت هذه الدنيا بكل ما فيها من نعيم وأوصاب وقام الناس غداً لرب العالمين، كان هذا الولد الصالح ستراً لأبويه عن النار وجاء صلاحه كفارة لآثامهما!

يقول رسول الله(ص) في الحديث المتفق عليه:(إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد

صالح يدعو له).

ويقول في الحديث المتفق عليه أيضاً:(من ولي من هذه البنات شيئاً فأحسن اليهن، كن له ستراً من النار).

فأي ضلالة أعظم من أن تعمدوا الى رصيد من الخير أنعم الله به عليكم بدون أي جهد، فتركلون بأقدامكم، ثم تجهدوا جهدكم ان تحيلوه الى عبء آخر من الأوزار تحملونه، بلا سبب، على ظهوركم؟!

وأي قسوة أشد من أن تعمدوا إلى هؤلاء الفتية الأطهار الذين آثروا في سبيل مرضاة الله ان يقبضوا ايديهم على مثل الجمر اللاهب من الاستقامة على الحق والثبات على الرشد، صابرين متبتلين . فتفتنوهم بنار اخرى من حربكم لهم وتشديدكم عليهم وإلجائهم بكل ما تملكون إلى الخوض في سبيل الغواية والضلال؟

أي فتنة عمياء هذه التي ركبتكم، حتى آثرتم وأنتم فيما تزعمون مسلمون . أن تجعلوا من أولادكم ستراً لكم عن الجنة، بعد أن أكرمكم الله تعالى فجعلهم ستراً لكم عن النار؟

دعوهم يا هؤلاء.. دعوهم . ذكوراً وإناثاً . لما فرغوا أنفسهم له من الانشغال عن دنياكم بآخرتهم، دعوهم لأسحارهم التي ينعمون فيها بمناجاة الله والسجود بين يديه، دعوهم للحق الذي آمنوا به وتعشقوه، عقيدة بين جوانحهم وسلوكاً في حياتهم، أو ستراً واحتشاماً في مظهرهن ولكم عليهم أن يكونوا أبر لكم من أنفسكم، وأن يدينوا إمكاناتهم وقواهم في خدمتكم، مادمتم لا تحملونهم على محرم ولا تحملونهم الى بغي وانحراف.

أليس خيراً لكم من محاربتهم، أن تناموا فيكتب لكم أجر تهجدهم واستغفارهم وأن تتقلبوا في ملهيات الدنيا وأهوائها فيكتب لكم أجر انصرافهم عنها واستعلائهم عليها، وأن تخوضوا في المحرمات والآثام فيمحوها استغفارهم لكم وداؤهم لتوبة الله عليكم؟

***

يا أيها الآباء، اجهدوا جهدكم ان تربوا أولادكم على اتباع سبيل الحق، فان لم تفعلوا ذلك، فلا تحملوهم على سبيل الضلالة والغي. وأعينوهم فيما التمسوه لأنفسهم من سبيل الوصول الى مرضاة الله برضاكم عنهم، أو بسكوتكم عليهم على أقل تقدير. وإلا، فليس بعدم عدو أو استعمال أو استشراق يخاصم الحق والدين.

وليس بعد الضلالة التي تسلكونها من سبيل يعرض حياة المسلمين لمحنة ساحقة أو بلاء ماحق. ولن تجدوا في أعمالكم كلها عملاً أبعث على الندم في الغد القريب من هذا الذي تعلمونه اليوم.

أما أنتم أيها الشباب، فلتعلموا أن حصيلة كل ما قد ذكرناه من العلاجات المختلفة لمشكلاتك إنما هي الصبر!

اصبروا على كل ما يعترضكم في الطريق الى الله، واستعينوا على ذلك، بتوفيقه سبحانه وتعالى فانكم ان فعلتم ذلك أحبكم الله، وإذا أحبكم الله أحببتموه، وإذا احببتموه هان عليكم كل ضيق وبلاء.

وإليكم ركائز هذا كله من كتاب الله تعالى:

. واصبر وما صبرك إلا بالله.

. ان الله يحب الصابرين.

. وبشر المخبتين الذي اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم.

أسال الله ان يدخلنا جميعاً في سلطان هذه الآيات وأن يختم لنا بصالح الأعمال والحمد لله رب العالمين.

---

[1]

الحديث رواه الشيخان.

[2]

الثقافة هي المعارف التي تتعلق بحياة الامم وتاريخها وعاداتها وافكارها. وإذاً فلكل أمة ثقافة تتميز بها. ويبدو أنه لا يستثنى من هذا التعميم إلا الأمة العربية فثقافتها مزق واجزاء من ثقافات الآخرين.

[3]

تطلق الداروينية الحديثة على النظرية التي اقترحها العالم الهولندي HUGO DE VERIES لتفسير التطور، وهي تقوم على افتراض عامل الطفرة، بدلاً مما افترضه داروين من عامل انتخاب الاصلح. انظر كتاب علم الحياة الحيوانية للدكتور عبد الحليم سويدان.

[4]

سأتوسع في شرح هذا الكلام، إن شاء الله، عند الحديث عن حلول هذه المشكلات.

[5]

ليس هذا حكماً على الجميع. وإنما هو وصف لكثرة من هؤلاء الناس، يكفي عددهم لصبغ المجتمع بهذه الصبغة المؤسفة.

[6]

اطلعت على رسالة من منشورات دار المعارف المصرية، يجيب فيها طائفة من الباحثين والمنفرين على هذا السؤال: لماذا نقرأ؟ ولسوء الحظ لم اجد واحداً منهم يقول: إننا نقرأ؛ أو يجب أن نقرأ لندرك الحقيقة ثم نتفاعل معها1..

[7]

لاريب أن كتاب المنقذ من الضلال للإمام الغزالي، يعد أعظم تجسيد لهذا القرين ولذا التسليك.

[8]

اذكر القارئ بأنا نقصد بالعلم اطلاقه العام الشامل للعلوم الطبيعية وغيرها.

[9]

اقرأ كتاب قصة تجربتي مع الحقيقة للمهاتما غاندي فان فيه فصولاً يفيد المسلم ان يطلع عليها.